تفاؤل
Tafaul

جمعية مكافحة السرطان الخيرية بالأحساء

قصص المتعافين

تمهيد :

لكل الباحثين عن الشفاء والمتشوقين لسماع أجمل قصص المتعافين من مرض السرطان

يسر جمعية مكافحة السرطان الخيرية بالأحساء (تفاؤل)، وباحتضانها لكل المصابين والمتعافين أن تضع بين أيديكم باكورة سلسلة كتاب أجمل القصص الحية التي حاربت السرطان وكافحته حتى تعافت لتبين لنا أن التفاؤل هو الشعور بالرضا والثقة بالنفس والنظرة الإيجابية للحياة.

غرست الجمعية في نفوس مستفيديها خلال مسيرتها التوعوية؛ التفاؤل لأنه احدى مصادر السعادة، وأسهل طرق النجاح، فزرعت في طريقهم الأمل وأشعلت فتيل الحياة بعد أن قررت أن تحرر أقلامهم وتضعها لكم في هذه الوريقات لعلها أن تكون مفتاحًا للنجاة لكل مصاب من شبح اليأس.

إن من أعظم أنواع التحدي هو تحدي المرض، فمن بين هذه الحروف ستجدون مستقبلاً أجمل يطل عليكم ليجبركم على الاستمرار والتحدي.

ستجدون قصصًا صيغت بحروف يشع منها بريق الأمل لكل محاربي السرطان المتفائلين ولكل المهتمين بشؤون المرضى ولكل الأسر التي عانت... هنا سوف تتلمسون الأمل بين أكفكم،

ففي عمق السطور التي بين صفحات هذا الكتاب نقدم نماذج حقيقية لمجموعة من الابطال الذين تحدو الألم واليأس والعجز واستطاعوا بعزيمتهم ويقينهم ان يتمسكوا بالحياة ويحققوا أحلامهم، وبأقلامهم الحرة يساهمون في بث الأمل وزرع القوة والإرادة ليس في نفوس المصابين فحسب بل للجميع.

فهيا نحلق في سماء كلماتهم وإبداعهم، ونبحر في أعماق الأمل والتفاؤل، وأقول لك عزيزي القارئ:

تفاءل فبرغم من وجود الشر... هناك الخير

تفاءل فرغم وجود المشاكل... هناك الحل

تفاءل فرغم الفشل... هناك النجاح

تفاءل فرغم قسوة الواقع... هناك زهرة أمل

إدارة وفريق عمل الجمعية

عنهم / أ. حافظه الجوف

إهداء

قصة: أمل في الحياة

بقلم: أمل الخالدي

عندما تشتد الأيام تتزاحم المهام، المسئوليات، الصعاب، عندما أقف وأرى طفلتي تبكي أمامي. هل أبكي أنا أيضاً معك؟

أنا مثلك أتألم وأشكو ولا أحداً يفهمني!

آه... صباح جديد لا أستطيع النهوض حتى من فراشي.

أطفالي: ماما، ماما، وأنا عيناي بالكاد أفتحها.

ما أصعب هذا الصباح!

هل الأمومة صعبة! لكن الكل عاشها ولم يخسروا أنفسهم ونشاطهم وصحتهم. لم أنا في تراجع؟

نعم كان هذا السؤال يؤرقني لسنوات. آه، فلا جواب له إلا أن تفيض عيناي بالدموع لصباح أخر مُتعب.

كنت أعرفُ أني تعبه، لكن لم أكن أعرف أين هو ألمي وأين هي علتي؟!!

كانت شماعة الأمومة والأطفال هي المنفذ لهذا السؤال هل هو فعلاً كذلك ....

هل هي لهذه الدرجة هي هالكة؟

بدأ جسدي يسخر من هذه الإجابة!

إنه ليس كذلك. إنك في الانهيار الآن..

لا شغف، لا إثارة، لا هدف، لا طموح ولا حتى رغبه في أي شيء، ما عدت أهتم لشيء، فالطفل الذي بداخلي، اختفى وكل شيء تنازلت عنه على التوالي دون انتباهٍ مني..

(وأنا) التي أعرفها لم أتعرف عليها أبداً. أصبحت لست أنا. إلى أن أتت تلك اللحظة التي ركعتُ فيها على رُكبتي أعلنُ هزيمتي لتلك الحرب. لتلك المقاومة. آه بطني. أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله يا الله. كنتُ أرفعُ سبابتي وأستنجد بمن حولي. ذهبت للمستشفى بملابسي التي لم أستطع حتى تغييرها، وبقدمين باردتين وبأصبع يتشهد.

-رجل الاستقبال: انتظري في الانتظار.

- أنا: أنتظر ؟! أنا أتألم.

- رجل الاستقبال: ماذا تشتكين إذاً؟

- أنا: .....

- رجل الاستقبال: ينظر إليّ باستغراب، اذاً انتظري حتى تناديك الممرضة.

ذهبت للانتظار وأنا أتسأل، هل فعلاً أستطيع الانتظار؟ أسعفوني أرجوكم، لكن من ماذا!!!!

جلستُ على الكرسي وكنت أجهلُ كل ما يحدث لي. الألم، وتشنجات بطني اختفت تقريباً وكأنها عادت لأدراجها المجهولة!

الحمد لله لكن هل أعود إلى البيت؟ الانتظار هنا طويل.

هل أعود الى غرفتي التي اكتسحتها أشباح الأدوية ومسكنات القولون، الغازات، وأدوية المعدة، بدل مساحيق التجميل والعطور وأدوات التزين. آه لا سأحتمل الانتظار، يجب أن لا يمر هذا اليوم بتحمل ما أجهله من جديد، نعم هذا اليوم سأجد الجواب المجهول الذي جهلوه أطباء العامة. والذي تحول أحدهم إلى طبيب نفساني، هذا ما حدث بيننا ... في أحدي زياراتي للمستشفى

- أنا: دكتور أنا أتألم.

- الدكتور: مما تشتكين؟

- أنا: ألم في الجهة اليُسرى من بطني.

- الدكتور: استريحي على السرير إذاً قبل أي شكوى، خُذي نفساً عميقا الآن.

- أنا: لكن، دكتور....

- قاطعني الدكتور: خذي نفساً عميقا كما أخبرتك الآن.

- أنا: ماذا بعد ذلك؟

- دكتور: أنتن كذلك ...كل النساء كذلك، تشتكين من معدتكن مما فعلتن بأنفسكن تحملن هم كل شيء فوق طاقتكُن، أنتن تشدّن أعصابكن بلا جدوى.

كان يتكلم كثيراً، وكنتُ كالبعيدة عنه بأمتار بل بأميال. إنني لا أسمعك يا دكتور ... محاضرتك التثقيفية لا أسمعها، إنني أراك بدون أي صوت يصِلُني! ...إنك لا تفهمني ....

لا أعلم لماذا تجاهلت صرف أدويه المسكنات وحضوري المؤلم المتكرر إلى المشفى في السابق ...لماذا تجاهلت كل هذا التاريخ!

- أنا: أين أدويه المورفين وكأني أختصر هذا الحوار العقيم؟!

- الدكتور: كتبتها لك." مبتسم "

- أنا: مشيت وتركت حديث الدكتور الغريب في العيادة التي انتزعت ثوبها الأساسي، ألا وهي فك الخيط الأول من لغز المريض إلى عيادة نفسية اجتماعية بحتة!!

في غرفة انتظار الطوارئ، الساعة التاسعة، بل أصبحت العاشرة حملت هاتفي، تحدثت مع زوجي وأخبرته بأني سوف أتأخر، الأطفال ينامون، فغدا مدارس، سأخبرك متى سأنتهي حينها لتأخذني.

العاشرة والنصف. الحادية عشر. آه إني تعبة حقا، هل هو يغمى على الآن.. أنا لا أعلم ما هو الإغماء، فلم أجربه سابقا

لكني أتخيل جسدي على أرض الغرفة وأشتهي حقاً أن أتمدد عليه. لماذا يرفضون أن يسعفوني سريعاً!!

الثانية عشرة صباحا

- الممرضة تناديني

شعرت بالفرح وكأنهم بشروني بالعلاج. استلقيت على سرير النتائج. كانت أكثر اللحظات استسلاماً مهما كانت النتائج، فقط أريد أن أعرف ما بي.

كانت مقولة إذا عرُفَ السبب بطل العجب تنطبق على تماماً، تذكرت إحدى زياراتي للمستشفى لمعرفة هذا العجب الفاشلة. فقد أكتفى الطبيب بأعطائي المزيد من المسكنات.

كانت نظراته كلها شك لكنه تراجع عن اتخاذ القرار، كانت لديه شفرات واضحة وسهلة، لكنه قرر أن يعالج اللحظة ويدع الباقي للأيام. وها هي الأيام جلبتني سريعاً إلى سرير النتائج.

الساعة الوحدة :-

- الدكتور المساعد: أمل، دكتور الطوارئ طلب مني عمل أشعة مقطعيه لبطنك.

- أنا: لا بأس هيا بنا.

ثم هيا بنا لنعرف الجواب.

الساعة الرابعة فجرا، تأخروا الأطباء وكأنهم يتجاهلونني كهذا التعب ...أين أنتم؟!قررت أن أستدعيهم.

الممرضة: نعم

- أنا: أين الدكتور ؟

- الممرضة: سيأتي الآن مع طبيبه المساعد إليك.

- أنا: وهل فعلاً الجواب يتطلب كل هؤلاء الأطباء!!

واخيراً الطبيب وبرفقته مساعده والممرضة كأنهم يحملون ثقلاً لا يستطيع شخص واحد حمله!

- أنا: دكتور ماذا بي؟؟!

ماذا وجدتم في أشعتي أخبرني؟

- الدكتور: أمل. أمل آمم آمم آمم

(وجدنا ورم كبير)

- أنا: صمت لا أعلم طال ذلك أم لا، لكن أطفالي أراهم بين رأسيَّ الطبيبين!

ماذا اطفالي؟

ماذا قلت. أطفالي؟!

- الدكتور ورم كبير جداً!

- أنا: ورم ماذا سرطان؟

الدكتور رفع حاجبه بأسف وبنشوة استكشاف الكنز بالنسبة له.

لا أعلم هل يحسب له أم عليه! هل هذه هي الطريقة المثلى لإخباري بكل بساطة أنه ورم سرطان كبير للمرة الأولى، وأين؟؟ في الطوارئ. ومتى؟؟ الرابعة فجراً!! دون أي تمهيد او استدعاء أحد من الأهل!!

هل لهذه الدرجة كنت ترى الموت قريباً جداً لا ينتظر الأمر بعض التهذيب أو الرحمة في سرد الخبر لي!؟...

لم يكن معي أحد ليشدَ من أزري وليجمع أمري بعد الله.

هل هذا صحيح يا دكتوري المنقذ!!

هل هو مصرح لك أن تخبرني كل الحقائق دفعة واحدة؟؟

لما لم تتريث قليلا لبعض الوقت لأن أتوقع ذلك بنفسي!!

أنت بالتأكيد تريد سحقي دون اكتراث!!

- أنا: دكتور أنا أسمعك تقول أطفالي الأربعة، لا أسمع سرطان.

نهضت من على السرير جاثية على رُكبي، أنا أرى أطفالي أمامي دكتور!!

الدكتور المساعد بعيون دامعة: أنا معك لا تخافي! وكأن رحمة ولطف لمستها في هذا الطالب الذي مازال ينبض قلبه رحمةٌ أكثر من معلمه ِالدكتور الخبير!!

- أنا: لا تتركني.

رمقَ لي طبيبي في نظرةٍ جهلتها، لكن علمت لاحقا أنه فعلاً جهل تلقيني بالطريقة المناسبة وكأنه لم يعجبه حتى مساندة الطبيب المساعد لي!!

حملتُ هاتفي لأخبر زوجي في هذا الصباح البارد.

ماذا؟؟!!! وهل هذا الخبر كأحاديثنا المعتادة! هل هو شيء يقال يا أمل، فخروف هذا المرض بدت مكبلةً بين أطرافِ لساني، وعيناي الشاردتان اللتان تبحث ُعن الأمان فما وجدت غير يا الله صبراً يجبرني ويجبر قلوب أحبتي فأنا أحبهم ولا أريد أن يحزنوا من أحلي أبداً ابدا ًابدا ً

حضر زوجي كان يشعر أن هناك خبر ثقيلاً سيُلقن له لكنه كان لا يتوقعه أبداً، ولا حتى واحد بالمئة، فزوجته تصغره بأعوام كثيرة.. وهي ولودة أحضرت له أطفال أصحاء أصغرهم لم تتعدى ستة أشهر!! ما بها اليوم تتدلع!

هي من تنظف البيت، تذاكر لهم، تغسل الملابس، وتحضّر طعامي الشهي.

أمي كانت بصحبته.

جسد أمي كان خاشعاً لله صبراً لكن لا أعلم ماذا يحترق في جوفها.

لا كلام غير أن جسدها كان في تسليم كامل لله.

التقت عيناها بعيني وأخبرتها بدون قيود بدون أي خجل من مشاعري. أنا أحبك يا أمي يا أعظم أم

ليس عليك أبداً هذه المرة أن تحملي همي، للأسف يا أماه هذه المرة يخبرني القدر، أن لا مجال لي أن أبرك كثيراً وأن أعيش كثيراً لأراك. أمي أنا أحبك بكل ما تحمل الحروف من أقوى معنى. ثم اخبرت زوجي أن يذهب للدكتور ليفهمه التفاصيل.

- خالد: " بصمت شديد ودهشة عارمة "

- الدكتور: أنت زوجها؟ تعال في غرفة الأطباء من فضلك. وجدنا لدى زوجتك ورم كبير جداً.

- خالد: سأستفرغ. أحضر لي الماء ماء ...ماء...

كان الدكتور قاسياً جداً معه..

لم يكتفي سرد الحقيقة دفعة واحدة علي. بل عليك أيضاً يا رفيق دربي ...

جلست بجانبه أواسيه! نعم أواسيه وقد شعرت بأن روحه قد تجمدت في عروقه صمتاً من هول الأمر حين ذاك،

أنا: أن أكون أنا مريضة هذا محتمل، لكن أن يصبح كلاّنا مرضى فهذا المُنهِك!!

نظر إلى ...فلم يكن له أي جواب أو كلام، لا أعلم هل الدواء تحت لساني أعطاني تلك الحكمة وذلك الهدوء، أم هي هلوسات التقبل أم هو التوفيق الذي ألهمني إياه الله،

هي لحظات مضطربة، لم أعرف سوى أن الله كان معي. كنتُ وصلت للحظة. نعم هذا الجواب، أخيراً عرفت علتي عرفتُ أخيراً، يا فرحتي، نعم وجدت ضالتي وجدتُ ما عاركتُ فيه بصمت لا يفهمه حتى فكري وأحتار أيضا به أمري.

وكأنني الآن عرفت أول طريق النجاة.

كنتُ قد ارتحت أخيراً فالعلاج نصفه معرفة العلة..

تحولت مشاعري لتقبل فضيع ورضا وفرحة وأخيراً عرفت السبب وكشف الغطاء عن العجب!!

وبدأت هنا رحلة إنقاذ نعم إنقاذ ما يمكن إنقاذه بأقل خسائر إن أمكن!!!

نعم وجدوني .... فهموني ...عرفوا ما بي. انتهت آلامي الصامتة. انتهت مُعانتي وصبري وأيامي الصعبة. انتهت صباحات الألم الصامدة. سأعود لكم يا أطفالي بأذن الله.

في تلك اللحظة قررت أن أتخلى عن مشاعر الحزن والصمت لقد ملّلت من هذا الضعف الذي عشته لسنوات دون إدراك.

قررت أن أجمد ردات فعلي، وأن اتقبل وأشكر الله وأحسن الظن إن ما هو قادم ألا الفرج

كنتُ في استسلام تام. تام وسكون وطمأنينة.

لا يخفى عليكم أنني عشتُ في لحظات من القلق نحو نوع ما يعيش داخلي من سرطان

هل هو سرطان بنكرياس، معدة، طحال!

كان أملي أن يكون الأخير هو مخرجي بعد الله من هذا التوتر والقلق ومع ذاك كنت في تسليم ورضا رهيب وسكينه هونت ما كان كبير وعظيم.

وبين انتظار الأيام لنتيجة العينة.

أتت رحمات الله تتوالى في غرفتي في قسم الأورام!! نعم الأورام.

نعم أنا تلك المرأة التي للتو عرفت أنها دخلت الثلاثين، بدأت عقدها بتلك الضجة المفاجأة!

كانت هناك زيارات الأهل والأحباب ودعوات وتوقعات خطأ طبي مستحيل أنت صغيرة!! أو ورم حميد لا تقلقي الكثير من العبارات المُسكنة المشحونة بكثير من القلق والخوف لدى البعض.

لكن أوقاتي الصعبة جعلتني أرى بوضوح وبرؤية صافية للقلوب الصادقة.

ولصداقة حقيقية. التي لا تشترى ولا تقدر ولا تثمن كن كالأخوات وكحديث النفس وكبلسم الروح كن ببساطة يُحولنّ

توتري لنكاتٍ ضاحكة وللحظة ترفيهية. لا أعلم كيف هي كانت ولكن هي كذلك ببساطة!

كن كالملائكة لا يخرج منهم إلا الطيب. ضمدوا آلامي، مخاوفيّ وحتى أسئلتي الغبية، كانوا سهلوا لي ما هو صعباً علي.

علمتّني أن أعيش لحظة الألم بأمل. نعم هنّ كانوا سبب اختياري لهذا القرار أيضاً

كانت أحداهن لها تجربة في هذا المرض والحمد لله أصبحت ذكرى بعيدة بل قوية كسبتها صلابة وأضافت لها الكثير لم يقتصر ذلك عليها وحدها بل من هم حولها في درجة الأولى. فالجميع رأى نفسه سخيفاً أمام قوتها.

فقد كانت أول عكازه اتكأ عليها في ضعفي التام الذي لم يظهر أبداً لأحد كانت مرآتي ونفسي التي أتحدث لها كانت أول من ا

تصلت عليها وأخبرتها فورا دون مقدمات وكأن السنوات تعود للخلف

فأمام تحملك ونجاحك واجتيازك في هذه المحنة بكل سلامة كانت عيناك تنظر ألي ولا تتكلم فقط تحكي لي ماذا يا أمل لا مجال للضعف. إما القوة وإما القوة. هذه اختياراتك. كنتِ ومازالت ملهمتي ويديّ التي أرشدتني في عتمتي المظلمة.

ما كلف الله عبداً ابتلاء إلا أعانهُ ووهبه ورزقه وأنار دربه، قد تغلق أبواب ولكن تأكد تماما هناك أبواب ستفتح في هذا الظلام.

فمهما طالت تلك العتمة لابدَ أن النور سيبدأ من جديد لكن لا تتعجل فقط عيش باطمئنان. ألن يكفيك قوله (إن مع العسر يسرا) ثم أكد وأعاد لنا القسم لتريح قلبك من تلك الوساوس ثم قال تعالى (إن مع العسر يسرا).

اشتدت عليّ الحرارة وطالت الأيام، وكثُرت المضادات والمسكنات. التوقعات، أنها لمفاويا " سرطان الغدد ".

لكن لا يوجد إلا الانتظار لنتيجة الخزعة.

لا مجال للإسراف في المشاعر. نعم البشر لهم الحق في أن يفرحوا ويحزنوا يبكوا لكن تعلمت ألا أُسرف فإيماني يرشدني أن أتوكل على الله وأن أرمي مخاوفي له وأن ألزم الدعاء في الحل والترحال.

صباح ذلك اليوم

- الدكتور: أمل
- أنا: نعم
- الدكتور: العينة تخبرنا أنها سرطان غدد لمفاوية ... وهذا خبر جيد ..لو كان غير ذلك سيتم تغيير خطة العلاج
- أنا: الحمد الله. الحمد لله. عدتُ لسجادتي وسجدت شكراً يا لله شكراً يا لله شكراً يا لله حتى ترضى وبعد الرضا.

يا لله أنت رحيم. أنت عظيم. أنت كريم.

أكرمتني يا الله كيف لي أحمدك كيف ليّ أشكرك حق الشكر ؟

ومن جانب آخر، كان الخبر كالصاعقة على أخوتي وأمي الحبيبة..كأن الخبر أخذ من عمرهم لحظات وأنهلهم للبكاء. لم يدركوا مدى أملي الذي تحقق لم يدركوا كم كنتُ فرِحة لهذه النتيجة ومطمئنة. عم بكيت حينها. اختلطت ايضا بين القوة وبين الشكر. بين الضعف لكني كنت راضية قضاؤه فلها حكمة لا يعلمها ألا الله وماهي إلا نهاية المعاناة.

وما حزني كان إلا لأن أهلي حزنوا، ولأني تحملت الكثير والكثير.. وتأخرتُ لأن أعرف الحقيقة الصامتة ولو كانت مرّه، أهلي يا سندي. كسركم يكسرني أكثر يضعفني ويرهقني أرجوكم كونوا بخير لأكون كذلك.

عدتُ للمنّزل ولم أبك أبداً بعدها. نعم عدت أنثر الهدوء والتقبل في قلوب أخوتي ووالدتي. عدت وقلبي امتلأ بالأمل والتفاؤل والعزم. كانت نتيجة دعاء أم وأهل وصحبة صالحة... إنه التوفيق والأبواب التي فتحت في تلك العتمة!

أنا راضية. أنا في الفرج الآن. أنا عرفت عدوي الأن في معركة جسدي الصامتة. كنتُ في ظلال تام أتخبط بين المسكنات والعلاجات وأسرفت دون إدراك لماذا وما هو السبب.

كأن جسدي الآن في استعمار وبدأت جيوش الأمل والإرادة بإذن الله في مواجهةٍ هذا المستعمر وهذا المرض. فها أنا بينكم أضحك أتكلم لم تفقدوني بعد. كنت أرى أطفالي بين خيارين أن أبكي وأحزن وأتخيلهم دوني. أو أن أقرر العلاج والصمود والتفاؤل إني سأعود لكم بكل ما أوتيت من قوة. إنها الأيام أو شهور استئنافيه فقط أنها استراحة محارب بلا شك كان هذا الأخير هو قراري. هو طاقتي وسبب صبري في هذه المحنة. أن هذا الوقت سيمضي حتماً كما ردّدته أختي التي تصغرني، ولا شك أن بقية أخوتي لهم دور قيّم ولا ينقص من أختي الصغرى أي مقدار فقد كنت كالطفل الذي يتلاعب به أخوته من يد ليد. كانوا حولي دائماً، لعلي من هنا أشكركم وإني أعلم جيداً أن لا شكر يُوفيّكم حقكم.

بدأت جلسات العلاج الكيماوي

أول جلسة كانت كشعور الطالبة في الصف الأول الابتدائي. نعم لم أجد له مماثل غير ذلك الذي ينادى باسمه ويسمعه بانتباه لكن هذه المرة هي المرة الأولى بين ممرات مرضى السرطان لا أدراج الدراسة فلم أتوقع ذلك أبداً في حياتي. كانت صديقتي هي من اخترتها تذهب معي، هي كانت يدي التي ترشدني في تلك العتمة. فقد كانت خطواتي لذلك المقعد خطوات باردة وجاهلة وغير متشابهة فكل خطوة تفكر بماذا سيحدث اليوم؟ فخبرتي في هذا المرض لم تكن سوى تجربة صديقتي الملهمة لكن كل حالة تختلف في العلاج، في التقبل، في الأعراض كأنه كتاب لا تعلم ما يحتويه حتى تبدأ في قراءته!

محاولات صديقتي في تخفيف توتر لتلك الجلسة نجحت جداً كأننا مدعوين لحملة تبرع بالدم!

كنا نتجاهل تماماً ما يحدث رغم حضور ذلك جيدا في أنفسنا!! بدأت حرارة الدواء تدخل في جوفي وعروقي فقد قرر الدكتور إعطائي أقوى كيماوي عرفه التاريخ لهذا المرض كان لا يريد أن يخسر الوقت وأن يجازف بالأخف منه لكبر حجمه ولأنه كانت حالة نادرة أن يأتي هذا النوع من السرطان بهذه الشدة والقوة والشراسة نعم فقد كان من هذا النوع. أعاذكم الله من كل أذى.

بدأ طعم الصديدي يملأ حاسة ذوقي وكياني، وانتهت جلستي الأولى بعد تسع ساعات من جرعة الكيميائية المقررة. ويؤخذ بالاعتبار أنها الجلسة الأولى فكانت توضع بشكل ممهد.. حتى يستوعب الجسد ذلك.

نعم انتهيت وبدأت لنهوض لتعرف على هذا الوقت الجديد من حياتي وهمّمت للخروج لكن لم تكن خطواتي كخطواتي السابقة الباردة التي دخلت بها!

بل تحوّلت الى أثقال وخطوات بالكاد تتشبث بالحياة عدت إلى منزلي لأهلي الذين توقعوا انهياري ولكن لم يروا منيّ إلا عينان صامدة ونفساً مستسلمة ومؤمنه بإن الخير قادم ولتو بدأ.

لا أخفي عنكم ولا أطيل أنها كانت سلسلة جلسات وانخفاضات وارتفاعات لكن كان يسودها الرضا، التقبل، السلاسة وهذا ما أصرت نفسي أن تنتصر على نفسي الأمارة بالنقيض والانهزام.

وتزيدهم انبهارا كنت أعكس كل شعور يحطمني لأول فكره إيجابية وأن كانت مجنونةٌ حينها، كانت ابتسامات الممرضات تزيدني تشجيعا. نعم أنه كذلك في هذا الوقت الآن فأنا ما زلت أنثى أهتم بنفسي فهذا يضيف لي قبل أن يضيف للآخرين. كيف بي أن أتعرف بهذا الشعور لولا محبة الله ورحمته علي! كيف لي أستشعر كل تلك النعم وكل ذلك الأمان والأرزاق والأحوال حولي!! لقد تهنا في سخائف الأمور جاهلين الأعظم والأجمل والأهم!

طهّو أمي وضحكات أطفالي ولمّات أخواتي من حولي وحتى هذه السيارات. وهذه المدينة كل شيء جميل لم أعد أرى أي أحزان وأصبحت كل الهموم سخيفة أمام هذا الجمال وكأنه كمال تام وعينان لتو أبصرت النور في هذه الحياة!

نعم الحياة نجهل قيمتها وتنسينا المسئوليات الأيام وحقيقة ثمنها نملك كل شيء ولا ندركه. نعيشه ولا نستشعره نتقلب في ملذات الحياة ولا نطلب ألا المزيد والأكثر نجهل الشكر نجهل أن نتخيل فقدانه

..

انتهى نصف العلاج.

وبدأت أول أشعة تصويرية بعد هذه الجلسات الصعبة وبنفس الوقت التي كانت سَلِسه لتقبلي لها، كانت أُختاي برفقتي في ذلك اليوم لمعرفة النتائج.

- الدكتور: أمل
- أنا: وبكل جسد يملاه فقط دقات قلب في ارجائه، (نعم).
- الدكتور: جسدك كجسد شخص طبيعي اختفت كُل مساحة الأورام إلى شيئاً لا يذكر

كان الدكتور يُقسط في هذه العبارة

أم هي قصه طويلة يا دكتور كنت تدفها لي ببطء؟!

أم كان مسمعي يتراقص حرقه أن يسمعها بسرعه!

أنا وأختاي تحولن من أجساد إلى جسد واحداً ملتم يبكي بصوت واحد متناغم بعفويه ... بكاء بدموع عذبه، بدموع الفرح والشكر والحمد بمشهد غير متوقع للبته،

لم أبكي هذا البكاء في أول هذا المشوار كبكائي الآن.

بكاء مسموع، بكاء يا لله يا لله يا لله، رحمتك أكرمتني كرم أخجل منه أنا خجلة. أنا خجلة يا الله. أكملت جلساتي لوجوب انتهاء المدة الزمنية المحددة المقررة للعلاج كانت أخف بعد هذا الخبر رغم أنها الأصعب على هذا الجسد المنهك من تكرر الجرعات،

أنا راضية ومستسلمة لقضاء الله مهما طال بي الأمر أو قصر، **وبعد هذا العلاج** قرر لي علاج وقائي دون العلاج الإشعاعي لصعوبة مكان الورم سابقاً. نعم سابقاً اللهم لك الحمد أصبح هذا وقت ماضِ كما أحسنت الظن به كما تخيلته كما قرر به قلبي واستشعرته كما تيقنت به كما أخبرني به الله أنا عند حسن ظن عبدي بي.

واستمريت إلى وقتي الحاضر بالجلسات الوقائية التي لا أعراض لها، اللهم لك الحمد لمدة لا تقل عن سنتين كقرار احترازي ومتفق عليه.

نعم فالأيام السوداء والسكون الذي اعتراها ما هو الا صبحاً اليوم لا يغرب بإذن الله.

نعم أنا محاربة السرطان بإرادة ربها. حاربت مشاعر ضعفها التي تفلتت منيّ كثيراً ولكنِ لم أيأس من تأديبها، وتعرفت على الحقيقة التي ضللتها وتعلمت أن أواجهها دون أيّ خوف فقد كانت المحنة ماهي الا كشف لغطاء اسئلةً لا جواب لها وجهلتها كثيرا.

بل بمثابة حل لاختبار طال الوقت للإعداد له وكانت بمثابة تعرية وصقل (لأمل) التي قلبت ألمها الى أمل كاسمها، وكأن الله اختار لها هذا الاسم لحكمة لا يعرفها سواه.

نعم هناك الأكثر والأصعب لم يذكر نعم هناك ابتلاءات تمحص الذنوب وترفع قدر المؤمن عند ربه لمدى تقبله ورضاه.

هو اختبار جماعياً أيضا! فما أنا ألا سبباً بعدما أيقنت أن هذا المرض نعمة لا يجلب لصاحبه ولمن حوله حتى ألا مزيداً من القوة مزيداً من النضج مزيدا من الحكمة ومزيداً من المعرفة. ومزيداً من التوفيق في الدنيا والاخرة ومزيداً من دعوات الحارة سخرت لنا في طبق من ذهب.

فلم يكن علينا سوى الصبر والتحمل، التقبل والرضا في كل سجدة وفي كل لحظة. في هذه المحنة ترى كل العلاقات حولك بوضوح ترى أجملها وترى نقيضها تترتب فيها الأولويات فهي باختصار لحظات مع نفس لبداية حياة جديدة لا أن تكون النهاية ابداً.

فإذا تولاك الله سخر لك كل شيء ولو كان في نظرك مستحيلا هو الله الذي يعلم ما يرضيك وما يحزنك وقادر على أن يبدل حالك في غمضة عين هو الذي رُوحك بين يديه فالقوة بالله والعون منه والامان من كل خوف وقلق والحذر لا يكون إلا معه وكل مخاوف الدنيا لا تساوي شيئا عند التوكل عليه فكل أمراً له حكمه، ولا ألم يستمر ولابد أن تنجلي

العتمة مهما طالت هو اختبار إما النجاح أو الخذلان أما الفوز أو الخسارة فلتحسن ذواتنا حسن الظن بالصبر الجميل والرضا المريح.

ما هذا إلا مرض قدرّه الله لك لِكيّ تنجلي من تحته الأقدار والرّحمات فلكل تعب وألم ماهي ألا رفعةٌ لنفس بالجلدِ الصبر وصقل لروح وأكثر.

إنما هو أفضل هو فضّل الله عليك في الحياة أنها كباقي التجارب يضيف لنا في النهاية المشوار لا ينقصنا. فلا ينتهي هذا المشوار إلا بالقرب والتعلق لله وحده ...فلن يساعدك أحد ولن يكشف الضر عنك سواه لن يفهم ما يدور بكَ سواه هو تعليم لنفس بأن التعلق لغيره ما هو إلا ضعف وإن ارتباطك الشديد به ما هو إلا صلابة في نفسك لما سيحدث بك وما هو إلا الاتزان والسلام الذي بصدرك وما حولك من أشخاص ما هم إلا أسباب.

فلتعلم أن كل عثرة هي درس يتعلمً منه الجميع. نعم فقد توجهت لطبيبي العام وأرسلت له رسالة أُعاتب فيه تجاهله لمعاناتي وأنه يجب أن يكون مقدراً لكل حرف يقوله المريض دون استخفاف أو التفاف في مُعاناه المريض. فالمريض لن يكون دوما كما تفكر أنت.

كانت ورقتي في مكتبه لتذكيره انني لن ألزم الصمت أبداً لتأخير اكتشافا جديد يسكن بصمت في جسد ما أخر أيضا.

ولن أقف جاثيه في أول عبارة طرقت مسامعي لن أبقى حول اعتقاد أي مخلوق أو توقع أي جهاز.

أو تحليل أي اختبار أو فحص دموي أو مجهري!

لن أنتظر أي كلام بشري أو أي مخاوف أطباء أو توقعات ظنية تنهي لحظتي هذه فعي أيضا من عمري لن تسلبوها قصراً عنيّ!

ولن أشعر أبداً بالرضا والقبول لأقوالكم البشرية والعلمية والإلكترونية حتى، فقد علمته قبلكم وشعرت به دون علمكم أنها القوة الخفية والروحانية.

نعم أن كان جسدي في استعمار هذا المرض فإيماني بالله وحسن ظني وإرادتي والتزامي بالأسباب هو جيشي وأسلحتي في هذه المحاربة، تلك القوة التي أستمدها من الله تجعلني كالريشة تعيش بانسيابيه في هذه الحياة، تترغد بين القبول والرضا. تسمع عبارات الأطباء المتشائمة ونظراتهم البائسة. أنها خيراً لا محالة كن مع الله يكن معك.

وما هذا إلا تمحيص، إلا حب الله للعبد أن يعلمه ويرشده الطريق لنحوه. فلك الحمد يا الله ولك الشكر حتى ترضى وبعد الرضى، قد يرى الجميع أن هذا المرض هو ابتلاء. لكنه حتماً نعمة للعبد في الدنيا والاخرة وكأنها صفوه يصطفيها الله لبعض عباده، فيا الله ألهمنا التوفيق في الدعاء وفي الشكر وأعنا على شكرك وحسن عبادتك كما ترضاه، ربي أني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً فلا يغفر الذنوب ألا أنت. ولا يرفع البلاء ألا أنت.

قصة: نقطة ضوء بقلم: رغد بركات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)** وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(83)

سورة الشعراء من الآية 78-83

كنت قد أتممت للتو العاشرة من عمري عندما بدأت أعراض المرض تظهر علي، لم أكن مستوعبة جيدا لما يحدث حولي. القلق المرسوم على وجه أمي... محاولتها الفاشلة دوما لكبح دموعها أمامي... زياراتنا المتكررة للمستشفى بغرض عمل المزيد من الفحوصات والأشعة... كنت أشعر بأن هناك حدث كبير يحصل كنت أنا محوره، لم أستوعب مداه إلا بعد حجزي في المستشفى لأول مرة، وخضوعي لأول جراحة، قصد أخذ عينة من الكتلة التي كانت قد ظهرت على رأسي منذ عدة أسابيع.

لم أكن أفهم شيئا مما يحدث حولي ... العديد من الأطباء تعتلي ملامحهم الحيرة لعدم تمكنهم من الوصول الى تشخيص لحالتي، التي لم تلبث أن تتدهور في وقت قياسي، لتأخذ أمي قرار سفري بشكل عاجل إلى بلدها الأم، بعد تأكيد الأطباء أنني لن اتمكن من العلاج في المملكة إذا تأكدت شكوكهم بشأن مرضي.

تم نقلي إلى المطار على كرسي متحرك، حيث كنت قد فقدت القدرة على المشي، نظرا لضعفي الشديد ومعاناتي في ذات الوقت من ازدواجية في الرؤية، وثقل شديد في اللسان، أثر على قدرتي على البلع والنطق، نتيجة تضخم إحدى الكتل الموجودة في رأسي، على حد قول الأطباء قبل مغادرتي للمستشفى.

كانت رحلة طويلة نحو المجهول ... لم أكن أعلم ما الذي ينتظرني.... هل سأتمكن مجددا من اللعب مع شقيقاتي كالسابق؟ هل سأتمكن مجددا من مشاهدة التلفزيون والقراءة؟ هل سأستمتع بتناول طبقي المفضل الباستا بشكل طبيعي وكامل مثل السابق أم لا؟ هل سأعود إلى مدرستي وصديقاتي وبيتنا الذي نشأت وترعرعت فيه أم لا؟ هل سأخضع إلى المزيد من الإبر والأشعة والفحوصات، التي كان جسدي الضعيف قد اكتفى منها خلال فترة الشهر التي قضيتها في المستشفى؟ هل وهل وهل وهل؟ أسئلة كثيرة كانت تجول بخاطري وأنا أنام على كتف أمي ونحن في الطائرة باتجاه المجهول.

لم تدم راحتنا بعد السفر طويلا، حيث تم عرضي على أكبر الاستشاريين مباشرة قصد القيام بالمزيد من الفحوصات، ليتم التوصل إلى تشخيص حالتي بأحد أشرس أمراض السرطان وأشدها مقاومة للعلاج الكيماوي .... المرض كان قد انتشر بشكل شبه كامل في جسدي، وسأحتاج إلى علاج طويل، يتم تحديده وفقا لتطور حالتي واستجابة جسدي للعلاج الكيماوي. لم

استوعب حينها ابعاد هذا الخبر، الا انني شعرت بعمق الصدمة على وجوه أفراد عائلتي وتحديدا أمي، التي كانت شبه منهارة عند سماع الخبر.

كان الوضع في البداية أشبه ما يكون بوجودنا في قلب عاصفة هوجاء بالمحيط حين تم تنويمي بالمستشفى لأول مرة قصد الخضوع للعلاج الكيماوي، حيث كان بروتوكول العلاج يقتضي مكوثي بالمستشفى لمدة اسبوع كامل في كل مرة.

ممر قسم أورام الأطفال كان كئيبا جدا ... كانت تقف في استقبالنا بدافع الفضول على الأغلب، العديد من السيدات بوجوه شاحبة مظلمة يكسوها التعب واليأس، عند الأبواب المفتوحة لغرف المرضى على طول الممر المؤدي الى الغرفة التي سأتلقى فيها العلاج. غرفتي لم تكن أقل كآبة من الممر الخارجي، فقد كانت باردة وشاحبة هي الأخرى، تفتقر إلى أدنى مقومات الراحة النفسية المطلوبة، لم يكن ينيرها غير الابتسامة الرائعة لأمي التي كانت تشع في قلبي نورا كلما أراها. أول قرار صائب اتخذته أمي، كان الحرص على إبقاء باب الغرفة مغلقا، على عكس ما لمسناه في الممر أثناء دخولنا للمستشفى، وذلك حرصا منها على عدم دخول أي عدوى بكتيرية الى غرفتي، وقد ساهم ذلك في عزلنا بشكل شبه كامل عن التأثير السلبي لباقي أمهات المرضى، وهو ما ساعدها على رسم واقع بديل أكثر جمالا وأكثر راحة داخل حدود الغرفة. وعلى الرغم من أن استجابتي لما كانت تفعله كانت ضعيفة جدا للأسف، نظرا لقوة العلاج الكيماوي الذي كان يسري في جسدي، إلا أنني كنت أستشعر اللمسات الإيجابية التي كانت تحرص على غرسها في المكان، بابتسامتها الجميلة التي لم تفارقها يوما، ولن أبالغ إن قلت إني كنت أستمد طاقتي من عمق ابتسامة أمي، فقد كانت تشعرني دوما أنني في أمان على الرغم من نظرة اليأس والأسى التي كنت أراها في عيون الأطباء.

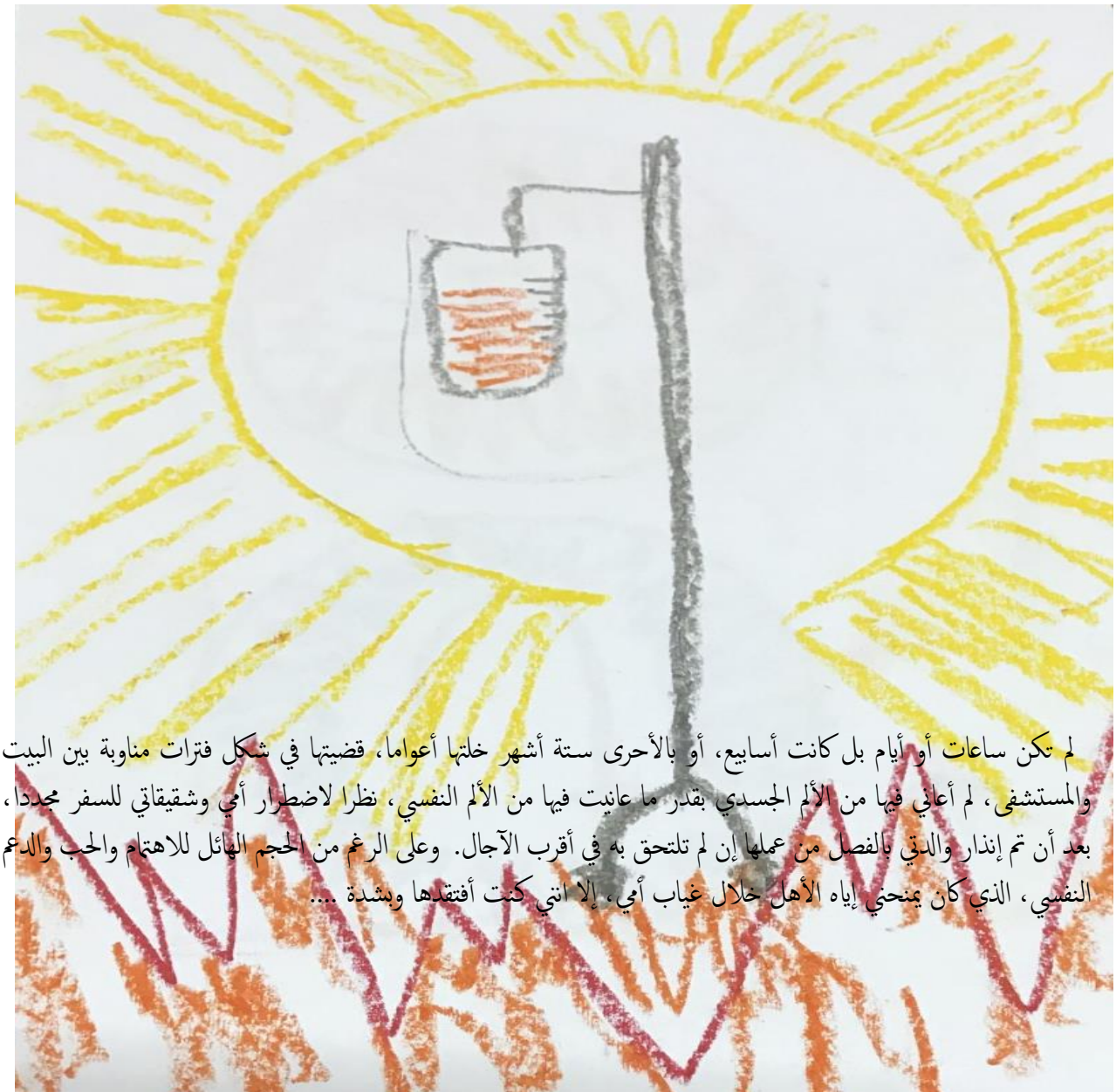

لم تكن ساعات أو أيام بل كانت أسابيع، أو بالأحرى ستة أشهر خلتها أعواما، قضيتها في شكل فترات مناوبة بين البيت والمستشفى، لم أعاني فيها من الألم الجسدي بقدر ما عانيت فيها من الألم النفسي، نظرا لاضطرار أمي وشقيقاتي للسفر مجددا، بعد أن تم إنذار والدتي بالفصل من عملها إن لم تلتحق به في أقرب الآجال. وعلى الرغم من الحجم الهائل للاهتمام والحب والدعم النفسي، الذي كان يمنحني إياه الأهل خلال غياب أمي، إلا انني كنت أفتقدها وبشدة ....

كانت الأيام تمر رتيبة بنفس الوتيرة، بين ألم جسدي الصغير الذي أنهكه العلاج الكيماوي، وبين ألم اشتياقي لأمي وأبي وشقيقاتي الصغيرات وبيتنا ومدرستي وصديقاتي، إلى أن جاء اليوم المشهود الذي أبلغت فيه الدكتورة أمي في حضوري وفي حضور طاقم الأطباء المشرف على قسم الأورام، أنني لن أتمكن من مواصلة علاجي لديهم، رافضة طلب أمي بالتوقيع على طلب حصولي لمنحة علاج في الخارج، لأن حالتي ميؤوس من شفائها، وأنها لن تضيع ميزانية وزارة الصحة في محاولة إنقاذ فاشلة لحالة ستموت قريبا.

كان كلام الدكتورة صادما بالنسبة لي، كما كان تأثير فظاظة أسلوبها في الكلام صادما لكل الحضور إلا أمي، فقد كانت تقف ثابتة شامخة الرأس وابتسامتها العريضة لم تفارق وجهها عندما ردت على الدكتورة بكل هدوء، بأن العلاج والشفاء بيد الله وحده وليس بيد البشر، يقين أمي في استجابة الله لدعائنا كان وقود الطاقة الإيجابية التي كانت تحركنا دوما في أحلك الظروف وفي كل المحطات التالية التي شهدت مشوار علاجي وشفائي فيما بعد.

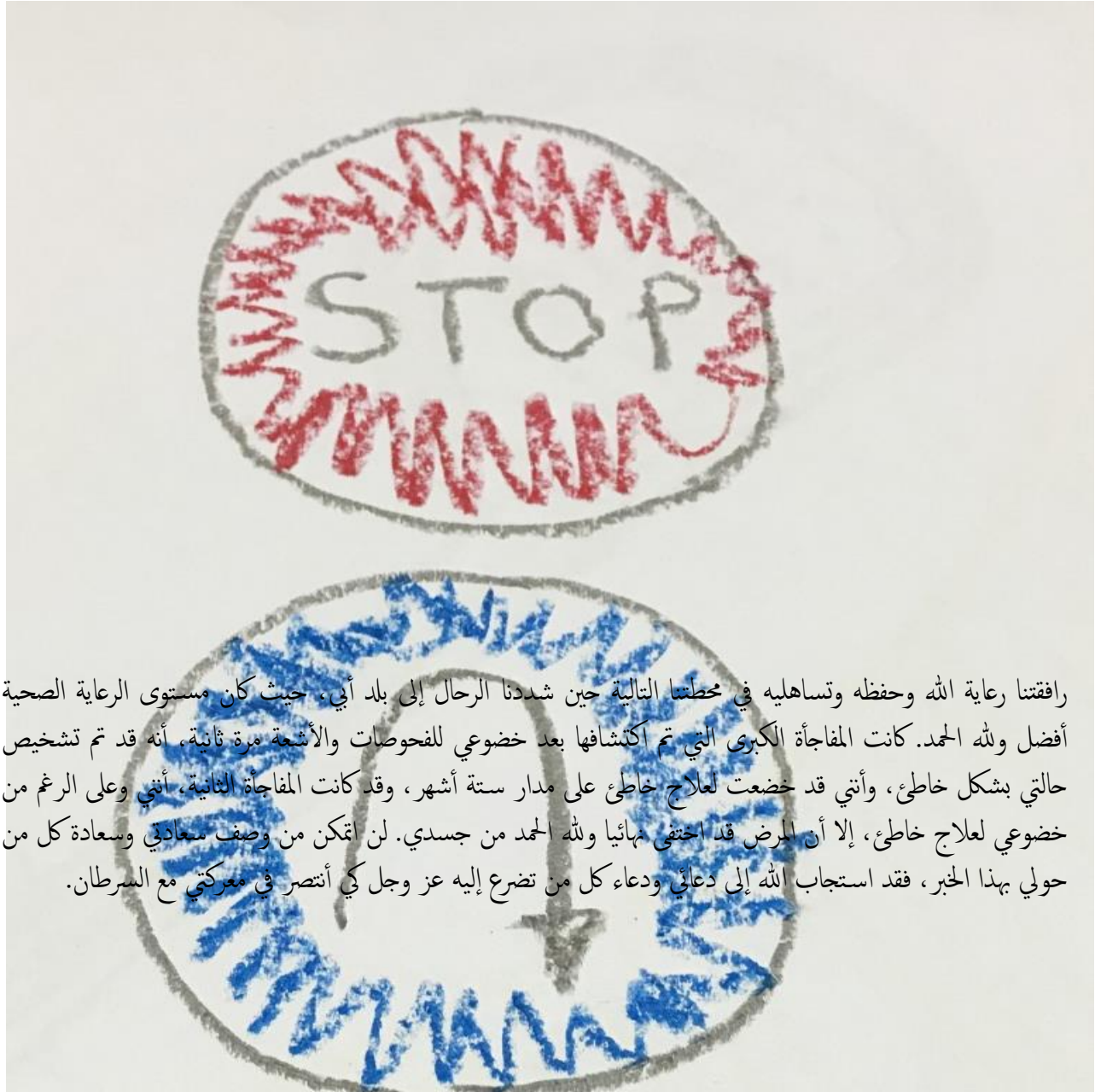

رافقتنا رعاية الله وحفظه وتساهليه في محطتنا التالية حين شددنا الرحال إلى بلد أبي، حيث كان مستوى الرعاية الصحية أفضل ولله الحمد. كانت المفاجأة الكبرى التي تم اكتشافها بعد خضوعي للفحوصات والأشعة مرة ثانية، أنه قد تم تشخيص حالتي بشكل خاطئ، وأنني قد خضعت لعلاج خاطئ على مدار ستة أشهر، وقد كانت المفاجأة الثانية، أنني وعلى الرغم من خضوعي لعلاج خاطئ، إلا أن المرض قد اختفى نهائيا ولله الحمد من جسدي. لن اتمكن من وصف سعادتي وسعادة كل من حولي بهذا الخبر، فقد استجاب الله إلى دعائي ودعاء كل من تضرع إليه عز وجل كي أنتصر في معركتي مع السرطان.

خلافا لما توقعته، لم يسمح لي بمغادرة المستشفى بعد سماعي لخبر شفائي، فقد أجمعت لجنة الأطباء أنني يجب أن أخضع لبرتوكول العلاج الكيماوي، وفقا للتشخيص الأخير لمرضي، والذي سيستمر لمدة سنتين ونصف تقريبا، وهذا ما تم طيلة ستة أشهر حظيت فيها بالرعاية الصحية اللازمة والدعم الكامل من الأهل، لم يكن ينقصني إلا وجود أمي التي تلقت تهديدا بالفصل من عملها للمرة الثانية إن لم تلتحق به على الفور. وقد استغلت أمي هذه الفترة في السعي المستمر قصد التمكن من الحصول على موافقة أحد المستشفيات على علاجي في المملكة، كي نتمكن من لم شتات عائلتنا من جديد، وهو ما وفقها الله في الحصول عليه بعد عناء كبير ولله الحمد.

عدت إلى المملكة مجددا ،عدت إلى البلد حيث ولدت وترعرعت، عدت إلى بيتنا، عدت إلى صديقاتي، إلى مدرستي التي افتقدتها كثيرا، وإن لم تنقطع صلتي بها خلال الفترة الماضية، حيث كانت أمي حريصة على استمراري في متابعة دروسي خلال فترة العلاج، الذي استمر بعد رجوعي إلى المملكة لمدة سنة ونصف، كنت قد وصلت فيها إلى مرحلة التعايش الإيجابي مع المرض والعلاج وآثاره الجانبية التي عانيت منها كثيرا، وإن لم أشعر يوما بثقلها، فقد كنت أنعم بقرب عائلتي التي كانت تهون عليا الكثير من الألم، وتمنحني الكثير من الأمل والثقة في نفسي .

الجلسات العلاجية كانت قد بدأت تتباعد مع الوقت، وفقا للبروتوكول الذي حدده الأطباء، ونهاية النفق كانت قد بدأت في الظهور في الأفق، حين تلقت أمي اتصالا ذات يوم من المستشفى، يفيد فيه أن المرض قد ظهر مجددا في جسدي....

كان الخبر صادما للجميع، فقد كان لظهور المرض مجددا في جسدي توابع كثيرة لم تكن في الحسبان، حيث أنني سأكون في حاجة إلى الخضوع لعملية زراعة لنخاع العظم، وهو ما يستدعي حصولي على موافقة من الديوان الملكي للتكفل بعلاجي، ثم البحث بعد ذلك عن متبرع مطابق.
لم يكن الطريق معبدا مثلما تمنيت، فقد كانت هناك الكثير من العوائق الإدارية التي تحول دون ذلك، إلا أن يقيني بالله كان أكبر من كل العوائق، وأكبر من القلق والحيرة التي كنت أراها في عيون أمي.
كنت أشعر بأن رعاية الله تحتويني طول الوقت، وأن ما يحدث الآن ما هو إلا بوادر للفرج، فما اشتد كرب يوما على مؤمن، إلا وكان الله مفرجه لا محالة.
تم تنويمي في المستشفى وإخضاعي للعلاج الكيماوي المكثف قصد السيطرة على المرض، في انتظار كل من رد الديوان الملكي على طلب التكفل بعلاجي، ونتيجة تحاليل المطابقة التي خضعت لها أسرتي، على أمل أن يتمكن أحدهم من التبرع لي بنخاع العظم.
كان وقت الانتظار يمر بطيئا جدا داخل أسوار غرفتي بالمستشفى، زاد من وطأته آلام العلاج الكيماوي الذي كان يسري في جسدي الضعيف، وهو ما دفعني إلى التفكير في استغلال وقتي بشكل أكثر إيجابية، بدعم من أمي وأعضاء الجمعية الخيرية بالمستشفى، وذلك من خلال تشجيعي على ممارسة بعض النشاطات كالرسم، صنع الحلي، التطريز والكروشيه. كان لهذه

النشاطات مفعول السحر، فجدران غرفتي لم تكن الوحيدة التي تزينت بلوحاتي الجميلة، عدوى الجمال كانت قد تسللت إلى روحي، لترسم ابتسامة على وجهي وقوة في جسدي المنهك، وأملا ويقينا لا يدعو للشك أن الغد سيكون أفضل بحول الله.

لم يطل صبري كثيرا، حيث زفت الي أمي ذات صباح أنها قد تلقت اتصالا من الديوان الملكي، يفيد بالموافقة على التكفل بعلاجي ولله الحمد. تسارعت الأحداث بعدها بانتقالي إلى المستشفى حيث ستجرى لي عملية زرع النخاع الذي تبرعت لي به شقيقتي الصغرى رنا. الحديث عن التفاصيل الكثيرة والأحداث المثيرة التي جرت أثناء وقبل وبعد عملية الزراعة ليس له نهاية، ولكنني سأختصره في القول بأن الأمر كله كان أشبه ما يكون بالمخاض المتعسر، الذي لعبت فيه أنا دور الجنين الذي ولد من جديد، دون مناعة، دون شعر، دون ذاكرة بيولوجية في الجسد.

لم تكن فصيلة الدم الذي يسري في عروقي هي الشيء الوحيد الذي تغير لدي بعد كل هذه السنوات من المخاض المتعسر، فقد غدوت أكثر قربا إلى الله... أكثر استشعارا لرحمته بعباده... وأكثر يقينا بأن المعجزات تحدث، وأن لا شيء مستحيل إن اقترن اليقين بالدعاء. بت أعلم أن علاج الأطباء لا يعني الشفاء، وأن الوفاء يقاس بعمق الأزمات لا بطول العلاقات .... بت أعلم أن الجهل يكبل العقل بقدر ما تمنحه المعرفة من حياة وانطلاق، وأن السعادة تكمن في استشعار الجمال في عمق القبح. بت أعلم أن الأمل يولد من رحم الألم ليصبح نقطة ضوء.

قصة: صابحة

بقلم: ابتهاج حجازي

كان من عادة صابحة أن تستيقظ كل يوم قبيل صلاة الفجر حتى تتوضأ وتصلي حاضرا، ثم تتوجه لإنجاز ما لديها من مهام وأعباء.

كانت حياتها مليئة بالكفاح والكد والاجتهاد، فزوجها قد توفاه الله قبل خمس سنوات وقد ترك لها طفلان لم يتجاوز عمر أكبرهما ثلاثة أعوام، بينما كان أصغرهما لم يكمل عامه الأول.

ثم شاءت إرادة الله أن يتوفى أخيها الوحيد وزوجته قبل عامين في حادث سير أليم مخلفاً ورائه طفلاً لم يتجاوز الرابعة من عمره، فما كان منها إلا ضمته إلى أولادها لتقوم على رعايتهم والعناية بهم وتربيتهم تربية سوية سليمة.

وعلى الرغم من أنها لم تكمل عامها الخامس والأربعين بعد إلا أنها انكفأت على تربية الأطفال الثلاثة ورفضت كل عروض الزواج التي وجهت لها.

وكانت تردد دائما كلما جاءها خاطبا يطلبها للزواج: "ومن لهؤلاء الأيتام الصغار، وكيف لي أن أدخل عليهم رجلا غريباً، وأنا لا أعرف إن كان سيحنو عليهم ويتقبلهم كأبناء له أم لا؟".

"هذا وعدا قطعته على نفسي ألا أتزوج ثانية أبداً، وأن أنكفئ عليهم لأربيهم تربية إسلامية حسنة، ويكفيني من الدنيا أن أكدح فيها لأجلهم، وأن أشغل نفسي بطاعة الله".

فكانت صابحة تصحو كل يوم قبيل صلاة الفجر فتتوضأ وتصلي الفجر حاضرا، ثم تذهب بعد ذلك مباشرة للقيام بواجباتها المقدسة، تلك الواجبات التي كانت تجني منها قوت يومها، فكانت تحلب جاموساتها، وتصنع الجبن القريش من ألبانها وتبيعه لأهالي الحي أو لمحل البقالة القريب، كما كانت تقوم بجمع البيض من حظيرة الدجاج خاصتها وتقسمه بينها وبين زبائنها الذين يحرصون على شرائه منها يومياً، كما كانت تزرع البرسيم في بعض قراريط صغيرة تركها لها زوجها قبل وفاته، فتطعم منها ماشيتها ودواجنها، وذلك إلى جانب أنها كانت تزرع الجرجير فتأكل منه وتطعم دجاجاتها.

وهكذا كانت تعيش حياتها، حياة بسيطة لكنها جميلة وطيبة، ولم تكن تمل من حمد الله وشكره على ما أنعم به عليها، من خيرات تملأ بيتها، وكانت تردد دائما: "الحمد لله الذي كفاني بفضله عن فضل من سواه، فلم أمد يدي لأحد قط منذ وفاة زوجي".

لكن ذلك الصباح كان مختلفا بعض الشيء، فبينما هي ترفع يداها لله في تكبيرة الإحرام أثناء صلاة الفجر استشعرت شيئا من الألم في ثديها الأيسر وتحت إبطها، فلما أنهت الصلاة تحسست مواضع الألم وهي تشعر بشيء من القلق، وقررت أن تذهب إلى المستشفى الحكومي القريب من بيتها في الصباح الباكر لإجراء الفحوصات، وما أن حل الصباح حتى استبدلت ملابسها واصطحبت أولادها الثلاثة معها إلى المستشفى للقيام بالفحوصات اللازمة.

ولما كان دورها في الفحص ودخلت إلى غرفة الكشف، استقبلتها الطبيبة المختصة بوجه باش مبتسم، وقالت لها "أخبريني مما تشكين؟".

فأجابت صابحة بكلمات قليلة لكنها كانت معبرة، قائلة لها: "إنني أثناء تكبيرة الإحرام في صلاة الفجر قد استشعرت شيئا من الألم تحت إبطي والناحية اليسرى من الثدي".

فقالت لها الطبيبة تفضلي استلقي على سرير الكشف وتجهزي للفحص، فما كان منها إلا أن استجابت للطبيبة على الفور.

ولما قامت الطبيبة بفحصها استشعرت ورماً في مكاني الشكوى، فطالبتها بالتوجه لقسم الأشعة لعمل بعض الأشعة اللازمة، للتأكد من الأمر.

فتوجهت على الفور إلى قسم الأشعة بالأوراق المطلوبة وقد تركت أولادها في عهدة ممرضة الاستقبال، وما أن استلمت الأشعة المطلوبة حتى عادت إلى الطبيبة المختصة لتطلعها عليها.

استلمت الطبيبة الأشعة وقامت بفحصها جيدا، وذلك قبل أن تجيبها بقولها: "يبدو جليا أن هناك ورما في مكاني الشكوى، وعلينا أن نبدأ سريعا في التعامل معه، فنحن لا نعلم أحميداً هو أم لا؟".

فأومأت صابحة برأسها بالموافقة، ثم قالت للطبيبة: "وماذا علي أن أفعل الآن؟".

فأجابتها الطبيبة قائلة: "سوف نحدد موعداً لإجراء جراحة لاستئصاله وتحليله، فإن ثبت أنه حميداً فلا بأس وأما إن كان خبيثاً لا قدر الله فسيكون علينا أن نستأصل الثدي الأيسر بأكمله، وسيكون عليك أن تتلقي نوعين من العلاج أحدهما كيماويا والآخر إشعاعياً".

فأجابتها صابحة قائلة لها: "الحمد لله رب العالمين، فقد قدر الله وما شاء فعل، فإنا لله وإنا إليه راجعون".

بعد غد في الصباح الباكر إن شاء الله سوف نقوم بإجراء الجراحة، وعليك أن تأتي بعد غد في الثامنة صباحاً استعدادا لإجراء الجراحة التي سنقوم بها في العاشرة".

وأعطتها الطبيبة بعض التنبيهات الهامة استعدادا للعملية، ثم تمنت لها التوفيق والسلامة.

عادت صابحة إلى بيتها وهي تفكر فيما أحل بها والذي لم يكن في الحسبان، وفي مصير أطفالها الثلاثة، لكنها كانت موقنة أن الله لن يتخلى عنها في تلك المحنة، لأنه كما قال في كتابه الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ولأنه كما قال أيضا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

كانت تقول في نفسها: "إن لدي سببا وجيها لأتشبث بالحياة، ليس حبا فيها، ولكن هؤلاء الأيتام، فإن واجبي نحوهم لم ينتهي بعد وعلى أن أحرص على شفائي حرصاً عليهم".

خرجت صابحة إلى بيت شقيقتها رابحة القريب من منزلها، وما أن طرقت باب البيت حتى أجابتها شقيقتها التي استقبلتها بمنتهى البشر والترحاب.

فما أن جلستا حتى قصت صابحة على رابحة أمر الجراحة التي ستقوم بها بعد غدٍ وحديث الطبيبة إليها، فأجهشت رابحة بالبكاء وهي تحتضن شقيقتها، التي جعلت تربت على ظهر رابحة وتقول لها: "قدر الله وما شاء فعل، إنها إرادة الله وإنا لله وإنا إليه راجعون".

"أختي لا نريد تضييع الوقت في هذا، فلدينا أمور لابد من إنجازها سريعاً، إذ أن اطفالي سيبقون عندكم أمانة أستودعها الله عندكم ريثما أعود إلى بيتي من تلك الجراحة، وكذلك ماشيتي ودواجني، كما ينبغي أن ترافقيني بعد غدٍ إلى المستشفى لتكوني إلى جواري أثناء الجراحة، وسيكون عليك أن تبقى إلى جواري أياما هناك".

أجابتها رابحة قائلة لها: "بالطبع، لا تقلقي فسوف يكونون هنا مع زوج خالتهم وأبنائي في الحفظ والصون، أنت تعرفين زوجي، رجل طيب القلب يحمل كتاب الله، ويقضي يومه بين البيت وجامع الحي الذي يؤم المصلين فيه، وسيكونون معه في أمان تام".

فلما اتفقتا الشقيقتين على كافة التفاصيل استأذنت صابحة وانصرفت وعادت إلى بيتها.

كانت تلك الليلة ليلة هادئة فقد وضعت اطفالها في فراشهم ثم قامت إلى الله تبتهل له بالدعاء وهي تدعوه أن يعينها على ما ألم بها من مرض، وتسأل الله الشفاء إكراماً لهؤلاء الأيتام لا لأجلها، وهكذا قضت ذلك اليوم واليوم الذي يليه بين قضاء حاجيات بيتها وأولادها وماشيتها ودواجنها وبين الابتهال والتضرع إلى الله لكي يخرجها من تلك المحنة بسلام تام.

فلما كان اليوم التالي استيقظت صابحة قبيل الفجر كعادتها فتوضأت وأدت صلاة الفجر ثم قامت إلى ماشيتها فأطعمتها وحلبتها، وذهبت إلى حظيرة الدجاج فجمعت البيض في سلة صغيرة ، ثم قامت وأعدت طعام الفطور لأطفالها، ثم أيقظتهم وجهزتهم للخروج وقد أطعمتهم طعام الإفطار، ثم قامت إلى اللبن الذي حلبته في ذلك الصباح وكذلك البيض الذي جمعته وأخذت ذلك كله كهدية لتهديه إلى شقيقتها عند زيارتها القادمة، ثم قامت واصطحبت أطفالها وتوجهت إلى بيت أختها، وكانت الساعة قد دقت السابعة صباحاً، فاستقبلتهم أختها بالبشر والترحاب، واستودعتهم أمهم الله وأوصت بهم زوج أختها خيراً، فأجابها بأنهم أبنائه قبل أبنائه وأنهم سيكونون في أمان تام إن شاء الله.

ثم انصرفتا الشقيقتان إلى المستشفى وقد وصلتا في الموعد المحدد، فاستقبلتها الطبيبة المختصة بوجه باش وهي تطمئنها، ثم ما أتجهزت صابحة لإجراء الجراحة حتى دخلت إلى غرفة العمليات وشقيقتها تنتظرها أمام الغرفة ولسانها لا يمل من ذكر الله.

كانت تبتهل وتدعو الله أن يرد أختها سالمة إلى أهلها.

فلما انقضتا ساعتان كاملتان خرجت صابحة من غرفة العمليات وهي مازالت تحت تأثير المخدر.

استقبلتها شقيقتها حامدة شاكرة والدموع تنهمر من عينيها فقد أدركت منذ الوهلة الأولى لخروج شقيقتها من غرفة العملية أنهم قد استأصلوا الثدي الأيسر كاملاً، ثم انكفأت عليها تقبلها وهي تردد: "أرجو أن يكون عضواً قد سبقك إلى الجنة يا أختاه، لا أزكيك على الله ولكن أحتسبك من عباده الصابرين، الذين يحبهم الله".

مضت الدقائق وأفاقت صابحة من غيبوبتها، وكان أول شيء قالته عندما فتحت عينيها: "الحمد لله رب العالمين".

قالتها مراراً وتكراراً، وهي لا تأبه بما فقدته، فقد عرفت منذ الوهلة الأولى التي رأت فيها دموع شقيقتها تنهمر أنه قد فقدت ثديها الأيسر.

كل ما كان يشغلها وقت أن أفاقت هي صلاة الظهر، أوجبت هي أم لا.

سبحان الله، هكذا هن الصالحات وهن كثيرات لا يبالون بالدنيا بقدر ما يبالون بالآخرة، ولا يشغلون أنفسهن بنعيمها بقدر ما يشغلون أنفسهم بالطاعات والعبادات.

كانت امرأة صالحة، لم تنل من التعليم قسطا كافياً، فقد حرمها الفقر من أن تستكمل دراستها الجامعية، فما أن أنهت تعليمها الثانوي حتى اضطرتها الظروف إلى أن تمكث بالبيت لرعاية أبيها المريض بالفشل الكلوي وجدتها المسنة وخدمة أخيها الأصغر.

لكنها كانت ومازالت صابرة على قدرها، لم تتذمر يوما أو تشتكي، بل كانت دوما تصبر نفسها بقولها: "إن خير رجالات الأمة لم يدخلوا الجامعات ولم يتعلموا سوى في مدرسة الكتاب والسنة".

انقضت عدة أيام على إجراء الجراحة وصابحة تقضي يومها مستلقية في المستشفى على سريرها، ولا تشغل بالها سوى بقراءة القرآن والسؤال عن أحوال أطفالها؟

لا يزورها أحدهم إلا ويجدها صابرة ولسانها لم يزل رطبا من ذكر الله تعالى.

كان زوج شقيقتها يعودهم بالمستشفى يوميا لتفقد أحوالهم وقضاء حاجياتهم، وطمأنتهم على أحوال بيوتهم وأولادهم وماشيتهم التي كان يقوم على رعايتها والعناية بها نيابة عن شقيقة زوجته.

وهكذا بعد أيام قليلة عادت صابحة إلى بيتها وهي لم تسترد كامل عافيتها، لكنها كانت أكثر إصراراً على القيام بواجباتها السابقة نحو بيتها وأولادها وماشيتها.

ثم كانت مرحلة العلاج الكيماوي والإشعاعي التي عانت فيها صابحة أشد المعاناة من آثار تلك العلاجات التي كانت شديدة القسوة إذا كانت تعاني من صلع تام وغثيان شديد إلى جانب أعراض أخرى شديدة القسوة، لكنها على الرغم من هذا لم تقصر في واجباتها، فكانت تقوم على رعاية بيتها والعناية بأطفالها، وشئون قراريطها وماشيتها.

بعد خروجها بشهرين تقريبا من تلك الجراحة كان شهر رمضان المعظم قد أهل عليها، فما زادها وهي في تلك الحالة إلا إصراراً على الطاعة والعبادة، فلم تقعدها آثار العلاج الجانبية عن الكد والاجتهاد والسعي بل إنه زادها رغبة في عمل الخير فكانت تشتري التمر وتفرغه من النوى وتقوم بغسله وتجفيفه جيداً ثم تذهب كل يوم قبيل آذان المغرب لتوزيعه على السيارات الذاهبة والآيبة التماسا للأجر والثواب، وكانت تحتفظ بالنوى المستخلص من الثمر في كيس كبير، وكلما سألها أحدهم لماذا تحتفظ به تقول سألتمس به الأجر من الله تعالى حمداً وشكراً له على نعمه علي، إذ أخرجني من تلك المحنة بسلام وأعادني إلى بيتي وحياتي بسلام تام.

لم تكد صابحة تنتهي من كل العلاجات المقررة عليها وتسترد عافيتها تماما حتى عكفت على استنبات نوى التمر الجاف وتوزيع النباتات على أصحاب الحقول دون مقابل، بل وكانت تصر على أن تغرسه في الأرض بنفسها وتسقيه للمرة الأولى بنفسها، وذلك دون أجر أو مقابل، فقد كانت تخبر ذوي الحقول أنها تفعل ما تفعله لوجه الله تعالى، وأنها لا تريد منهم لا جزاءً ولا شكورا.

وهكذا عادت صابحة لحياتها السابقة وواجباتها أكثر إقبالاً وحيوية ونشاطاً وأكثر حرصا على الطاعات والعبادات وأكثر إقبالا على الله تعالى بفضل تلك المحنة التي تحولت إلى منحة.

قصة: الحصان الأسود

بقلم: أمل مطلق الحربي

اليوم هو أخر أيام عزاء أمي، مسكينة أمي، لم تتحمل صدمة زواج أبي من امرأة أخرى، ومن ثم تخليه عنها حتى وهي على فراش المرض.
لقد عانت من خذلانه لها، ومرضها الشرس، حتى دخلت في مرحلة صعبة من الاكتئاب لم تفلح معه العقاقير المضادة له، ولا محاولات الأطباء النفسين في خروجها منه.

فكانت سجينة غرفتها المظلمة طوال الوقت، كانت ترفض مقابلة حتى أقرب الناس إليها، تقضي طيلة اليوم سجينة جدران غرفتها، بنوافذها المغلقة، وستائرها المنسدلة، تغرق في وحدتها الدائمة، بملامح مكتئبة، والتي لا تعبر عن شيء سوى الحزن المستوطن في أعماقها، والذي يظهر من خلال كلمات مقتضبة، ونظارات تائهة، ودموع حارة.

أذكر أني دخلت عليها ذات مساء على عجل دون أن أطرق الباب فرفعت رأسها لي بنظرتها الشاردة، وعيونها المرهقة من آثار السهر.

حاولت أن تخفي كيسا كان بيدها تحت السرير. اقتربت منها بسرعة وأخذته منها كان ممتلئا بخصل شعرها الطويل والذي سقط بغزارة بعد أن بدأت العلاج الكيميائي، أخذ ت إحدى الخصل منها كانت تبدو كأنها قطع من الليل سقطت من السماء بتموجها ونعومتها، كنت أحب النظر لأمي وهي تمشيط شعرها الطويل، فاحم السواد، وكأنها أميرة إحدى القصص الخيالية، شعرها الذي طالما تمنيت أني ورثتها منها.

اقتربت منها سألتها: لما تحتفظ به؟ نظرت لي بحسرة ولم ترد !فقط اكتفت بضم الكيس على صدرها وهي تمسح دموعها بيديها المرتجفتين، ثم نظرت لي، وبصوت متقطع قالت: هذا شعري يا نورة.

كانت كل كلمة منه تستقر في أعماقي كسكين، تزاد حده مع الوقت، وتخترق جسدي حتى تستقر في قلبي، ومعها ابتدأت تتغير ملامحي، كنت أشعر أحيانا أني أكاد أموت بنوبة مفاجئة، وأصاب بسكتة شعور، ونزيف ذكرى لا يتوقف.

كانت كلماتها تحرقني أكثر من الكيميائي الذي حرق جسدها الناعم، وغير ملامح وجهها الجميل، وترك تلك المساحات الفارغة من رأسها بلا شعر.

اقتربت منها وأنا اقبل يدها وأحاول سحب كيس الشعر منها، شعرت أن كلماتي تختنق داخلي، ولساني أخرس يعجز عن تجميع أي كلمات لينطق بها، عانقتها بقوة، وبكينا معنا طويلا.

-أمي لماذا تفعلين هذا ؟

صمتت لفترة طويلة وهي تحاول ابتلاع دموعها، وتجر طرف البطانية لتغطي وجهها ثم قالت: جسمي يؤلمني، أ ريد أن أنام.

كنت أعرف أن علاج أمي كان أبي الذي لم تعد تعني له شيئا، بعد أن تزوج من امرأة أخرى ويقضي الآن شهر العسل مع زوجته في سويسرا.

لقد قتل أبي أمي بزواجه من امرأة أخرى بعد أن كافحت كأي امرأة لأجله، وساندته في كل منعطفات حياته، لم تتوقع أن تكون نهاية كفاحها معه على هذا النحو من الخذلان، والجحود، والخيانة، بعد أن كانت له الزوجة، والحبيبة، والصديقة.

لقد وافقت على الزواج منه رغم معارضة أهله لها بسبب وضعه المادي عندما تقدم لخطبتها.

عند وفاة أمي، كنت للتو تخرجت من الجامعة، اليوم الذي كانت تنتظره أمي بفارغ الصبر أن تراني بعباءة التخرج، وأن أصبح (أبلة نورة) معلمة الرياضات كما كانت تحب أن تناديني كانت تقول: على الدوام أنها سأتكون سعيدة بيوم تخرجي حتى أكثر من حفل زفافي.

أمي، التي كانت تشجعنا على الدراسة أنا وأخواتي، وتقضي وقتا طويلا في مذاكرة دروسنا، وفي فترة الاختبارات كانت تقضي الليل وهي جالسة إلى جواري على الكرسي، كنت أشفق عليها عندما أرها تتنقل بين غرفنا وعليها وعلامات الإرهاق عليها حتى عندما اشتد مرضها.

منذ كنت صغيرة هي تناديني أبلة نورة، وتنادني أختي سارة بالدكتورة، وأخي الصغير أحمد بالمحامي. رحم الله أمي، لم تر أي منا في حفل تخرجه.

بعد وفاة أمي، أصبحت حياتي خالية تماما. مرت أيامي رتيبة بين انتظار وقلق وترقب حزين وحنين موحش. في كل يوم كنت أتمنى أن تكون وفاتها مجرد كابوس مفزع ينتهي بمجرد أن استيقظ من النوم.

كنت استغرب من قدرتي على الصمود، وأنا أمزق كل يوم ورقة من رزنامة الأيام لا تحمل خبر عودتها، لم أعتد احتمل فكرة غيابها، اشتقت لحديثها، لابتسامتها، غياب متن نحب يجعل أيامنا أطول وأحاديثنا أقل وجراحنا أعمق.

خالتي هدى كانت أكثر خالاتي شفقة علينا، لذا بقيت معنا شهر تقريبا، حتى بعد انقضاء فترة العزاء، حتى اتصل زوجها وطلب منها العودة للبيت متذمرا من ترك أبنائها طيلة الفترة الماضية.

بعد ذهابها أصبحت حياتنا خالية حتى من طيف أمي الذي كنا نراها في خالتي هدى، والتي تشبه أمي كثيرا في ملامح وجهها الدقيقة، وبشرتها السمراء الناعمة، وشعرها الطويل.

قبل أن تعود خالتي لبيت زوجها، احتضنتني وهي تبكي ومدت لي مبلغ خمسمائة ريال وهي تقول :اصرفي منها على أخوتك وسأزوركم كلما سمحت ظروفي.

كانت الخمسمائة ريال كل ما نملك بهذه الحياة، بالإضافة للمنزل الصغير الذي كان باسم والدتي والذي لم تصل له يد أبي والذي تحولت له ثروة أمي بعد وفاتها.

ومع كل يوم ينفذ جزء من المبلغ، يزداد قلقي من الأيام القادمة، وأخشى من اليوم الذي لا أستطيع فيه توفير متطلبات اخوتي.

دعوت الله ربي، لقد بذلت ما بوسعي لئلا نطفئ، خذ بيدي إلى نجم بعيد، واغمرني بضوء لا يخفت بريقه ولا يختفي، ربي يتعبني هذا التعب والمشي في هذا الطريق الطويل، في طريق أجهل نهايته، خذ بيدي يا الله من التيه، والحيرة، انتشلني يا الله متن هذه الطرقات المتعثرة، ومن أنياب القلق الى رحابتك وطريقك المستقيم وملأني بالسلام الذي أهرب إليه.

في صباح اليوم التالي، ذهبت لأحد المدارس الخاصة القريبة منا لأسأل إن كانت هناك وظائف شاغرة.

-سألت موظفة الاستقبال هل يوجد وظائف شاغرة ؟

ردت: ما تخصصك؟

-رياضيات.

-يمكنك الحضور الأسبوع القادم بعد استكمال الأوراق المطلوبة.

-أي يوم ؟

-الإثنين القادم.

-هل هناك شيء آخر ؟

-لا.

شكرتها وانصرفت، بعد أن اعطتني كلماتها الأمل، وأضاءت سراديب الظلام حولي، وضخت داخلتي أرطال من الأماني المؤجلة.

بعد أسبوع حضرت للمدرسة وأنا أحمل ملفي وبه جميع الأوراق التي طلبتها موظفة الاستقبال، ودخلت عليها.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام ورحمة الله.
-تفضلي أختي هذا ملفي.
أخذته مني وفتحته، الحمد الله كل شيء تمام، ثم مدت لي ورقة فيها رقمي للدخول للمقابلة.
انتظرت قليلا حتى جاءت موظفة تنادي برقمي لأدخل، طرقت الباب للاستئذان بالدخول .كانت تجلس سيدة في الخمسين من العمر خلف مكتبها الفخم، رحبت بي ثم سألتني عن اسمي.
-نورة.
-كم عمرك ؟
-ثلاثة وعشرون سنة.
-أنا الأستاذة رويدة مديرة المدرسة.
-حياك الله .
مضى الوقت بين سؤال وجواب تنوعت بين الجانب التربوي، وطرق التدريس، والوسائل والأنشطة، كانت أستاذة رويدة مريحة بابتسامتها الهادئة، وملامح وجهه البسيطة للحد الذي لم أشعر فيته بالقلق، كان الحصول على وظيفة هو أقصى ما تمنيت الحصول عليه في ذلك الوقت.
في اليوم التالي جاءني اتصال من المدرسة يخبرني بالقبول النهائي.
منذ وفاة أمي وأنا أغرق في فراغ رهيب وهدوء قاتل. الكلمات تعجز أن تصف المحيط من حولي، يختلجني شعور السقوط في هوة عميقة لا منفذ فيها للهرب.
حديثي مع الجميع أصبح كحديث البصير للأعمى مهما كان بارعا لن يصف له جمال ألوان أجنحة الفراش في وحديقة، ولا خضرة الزرع بعد هطول المطر، ولا زرقة السماء في يوم صاف.
اليوم أشعر بسعادة مختلفة تصالحني بها الأيام بعد جفاء، وتعيد بصيص النور لفتيل السراج المظلم. وتجمع بقايا أشتاتي المبعثرة.
لم أكن أ ريد أكثر من وظيفة تعيني على الإنفاق على اخوتي.
في اليوم الأول ذهبت للمدرسة، استقبلتني وكيلة شؤون المعلمات وبعد أن رحبت بي، سلمتني جدول الحصص، وعندما دق جرس الحصة، كنت مستعدة للدخول للفصل، شعرت بالارتباك للوهلة الأولى، وصعوبة الموقف، مرت بجانب الفصل أستاذة رويدة وابتسمت لي وأشارت بيدها، كانت ابتسامتها مريحة للحد الذي أعاد لي توازني، كما لو أنها تقذف داخلي طاقة هائلة لأكمل الحصة بهدوء.
كان العمل وأستاذة رويدة طوقا النجاة التي قذفتها لي الحياة لأبدأ فصل أخر من عمري بدون أمي، والتي غادرتنا بلا عودة.
كانت تزورني بين الحين والحين في غرفة المعلمات وتعيرني بعض الكتب التي افادتني في مجال عملي كمعلمة في بدايتها الأولى.
لتم تكتن استاذة رويدة عادية وهي تضيف في نفوسنا أرطال من الأمل، وتشتعل داخلنا مصابيح الحياة، وتمسك بيدنا لنفتح نوافذ الغد، وكأنها النجمة التي تسقط من رأس السماء، وهي تجمع الضوء لتمنحه لقلبي اليائس، لأستفيق من كابوس مزعج في عالم متلألئ بقناديل فضية، في جزيرة لا يسكنها إلا الغد المنتشي بالأمل.
تشعرني أحيانا أنها أم تصالحني بها الأقدار، وحزمة نور تبدد الظلمة داخلي، وحياة تغتال الوحدة التي تفتك بي. كانت كلماتها تنير فينا الحماس كل صباح، وتبعث فينا الحياة.

أعتاد الجميع على ابتسامتها المشعة بالألوان، وكلماتها المشعة، وروحها المحلقة من وراء السحب الداكنة .كانت أغلب معلمات المدرسة يعتبرن أستاذة رويدة مال أعلى في إخلاصها في عملها، ولطف تعاملها، ورحابة صدرها مع الجميع .كانت تقضي يومها في الإشراف والمتابعة متنقلة بين فصول وممرات المدرسة، أو جالسة على مكتبها خلف كومة الأوراق في كتابة التقارير، مكتبها دائما مكتظ في استقبال الطالبات أو أولياء الأمور لمناقشة قضية أو بحث موضوع.

بعد مرور ثلاثة أشهر من عملي شعرت بالكثير من الاستقرار النفسي، وتحسنت أحوالي خاصة المادية منها، واستطعت توفير متطلبات أخواتي، وبدأت اعتاد على حياتي الجديدة بدون أمي رحمها الله.

مرت أيامي بين المدرسة، والبيت المدرسة التي كانت النافذة التي دخلت منها لحياة أخرى فيها تحملت فيها تربية إخوتي ومساعدتهم على إكمال تعليمهم. أصبحت لهم الأم والأب، وكانوا لي كل الأهل، لقد جعلوا من حزني خيل أصيل تخطت كل التضاريس الصعبة، والممرات الحرجة، التي أجبرتني عليها الحياة، لتصل للنهاية بنشوة النصر. كانا كل الأصدقاء والأحبة، عندما يتمكن مني اليأس كنت أجدهما خلفي، وعندما تذبل روحي، يحتضنان أوجاعي، ومعهما تكتمل سعادتي. لم يتغير شيء في حياتي حتى جاء اليوم الذي افتقدت به كلمة أستاذة رويدة في الطابور الصباحي والتي تلقيها في بداية كل يوم، لذا سألت عنها السكرتارية أجابت: بأنها لم تحضر اليوم.

لم اعتد على غياب أستاذة رويدة منذ أن بدأت العمل في المدرسة، لذا استغربت اليوم، وافتقدت مرورها اليومي على الفصل .

لم اعرف سبب انزعاجي اليوم، لذا طلبت من وكيلة الشؤون التعليمة الاستئذان بعد أنهيت حصصي وعدت للبيت .حاولت تجاهل حالة القلق التي لازمتني منذ الصباح بالانشغال بتحضير دروس اليوم التالي، والجلوس مع إخوتي.

استيقظت في اليوم التالي مستبشرة في مقابلة أستاذة رويدة والسلام عليها، لذا ذهبت لمكتبها فور دخولي للمدرسة دون المرور على السكرتيرة فوجئت بأن الباب مغلق.

عدت لأسأل السكرتيرة فصدمتني بأنها لم تحضر اليوم أيضا، تجرأت بالسؤال عن سبب غيابها فقالت: أنها في إجازة مرضية مطولة.

شعرت أني داخلي مظلم بالحزن، معتم بالإعياء، منهك من القلق ومع مرور الوقت بدأت أشعر بالاختناق وفي كل دقيقة تتسع دائرة الملل حولي. من أصعب الأمور أن نجبر ملامحنا أن تأخذ صورة أخرى لا تنبع من إحساسينا، ولا تنطق بأصواتنا حاولت إنهاء اليوم مهما كان الحال.

في نهاية اليوم وقبل أن يدق جرس العودة للمنزل رأيت استاذة سعاد في غرفة المعلمات تمسح دموعها، اقتربت منها لأسألها عن سبب دموعها. احتضني وهي تقول: حبيبتي أستاذة رويدة .....ومن ثم تصمت.

وبذعر سألتها: ماذا بها؟

-أنت ما سمعت عن مرضها ؟.

- لا.

- تحدثي ماذا فيها؟.

- سرطان.

شعرت بحرارة دمعي في قلبي عِوضا على أن يكون أثره على خدي، اسم المرض عاد بي لتلك اللحظة البشعة التي صارحتني أمي بمرضها، حينها شعرت بأن نبضات قلبي توشك على التوقف، وأنفاسي تنقطع، وروحي تكاد تغادر جسدي .

عدت للبيت تكورت حول نفسي، أضمها لها، وأشكي لها منها، بكيت بقوة، وسادتي غرقت بالدموع، ودموعي جفت من البكاء، دموعي استنزفت كل الماء بجسدي.

تعجبت حينها من قدرتي على تحويل الألم إلى حزن صامت، ومتن ثم تحويل فوضى الصمت إلى هدوء مريح تشرب نفسي وجعلني أكثر طمأنينة مع الوقت.

بعدها قررت أن أذهب إلى لقاء أستاذة رويدة سألت أستاذة سعاد عن المستشفى الذي تتعالج به، ورقم غرفتها، وفي المساء ذهبت لها، وعندما وصلت لباب الغرفة طرقت الباب ودخلت.

لأول مرة أرى أستاذة رويدة خارج أسوار المدرسة، كان وجهها شاحب اللون، وفي عينيها شيء من الذبول، وتظهر عليها علامات الاجهاد، تغطي رأسها بحجاب أبيض اللون، وبيدها مصحف وتقرأ بصوت مرتفع. تمهلت حتى تكمل الآيات التي كانت تقرأها. رفعت رأسها ونظرت لي وابتسمت. رميت نفسي في حضنها وبكيت، قبلت يديها ورأسها شعرت بيدها تمسح على رأسي.

وهي تقول: حبيبتي، نعرف أننا لا نموت إذا كان بحوزتنا إرادة الحياة، والتي تغلب أي شيء. وكذلك أن منحنا الله صداقات حقيقة، لأننا في كل مرة نسقط فيها نجد أجسادهم ترتطم بالأرض قبلنا، وأياديهم تمتد إلينا لنعود للوقوف، وعيونهم تنظر لنا لتمسح بقايا دموع الأمس، وعندما نلمس أيديهم نشعر بتلك العظمة التي تجعلنا ننهض من ركوعنا.

مسحت دموعي بيدها وهي تقول لا تبك يا نورة. أنا سيدة تلك اللحظة التي تبزغ من فوضى اليأس وتقول الطريق لم ينته بعد. نظرت إليها بعد أن منحتني طمأنينة عميقة، شعرت أن جميع ما حصل لي من أحداث سيئة لم يعد يؤثر بي وكان الله يرسل لقلبي نورا كالنور الذي أرسله الله لعين يعقوب عليه السلام فبصرت، وراحة كالراحة التي وضعها في قلب مريم فأطمئن قلبها.

مسكت يدي أستاذة رويدة وهي تقول: حبيبتي نورة، في لحظات الضعف علينا ألا نمسك إلا في اليد الأخرى، فمن يؤمن بنفسه لن يهزم، ومن يثق بمبتغاة سيصل.

عندما قررت زيارة أستاذة رويدة، كنت قد أعتقد أن زيارتي لها قد تمنحها القوة، وأن مشاركتنا لها ستخفف من وطأة مرضها، وكم كنت واهمة في ذلك!

كانت تتحدث بأسلوب رباني ينير سراديب الأحزان بتلك المصابيح الإلهية، عن رحمة الله التي تسع الجميع، وتعفو عن المذنب، وترحم العاصي، لم لخوف! والله يرحم ضعفنا؟ يشفق على أرواحنا المتعبة، فيمد لنا يد الرحمة، ليقترب المسيء والمحتاج والمريض فما أرحمك ربي!

كانت كلماتها كمرهم تلتئم به الجروح المتقرحة، وكمطر تنمو به الزهور الجافة. عدت بعدها للبيت وأنا ثملة بكل كؤوس الأمان التي تجرعتها على مهل.

لم يتغير شيء في هذا العالم، فلا زالت الشمس تشرق، والناس يكملون حياتهم ويضحكون، ونشرة الأخبار تنقل أخبار الكوارث ومصائب العالم، سوى مصيبتي في فقد أمي.

آه يا أمي ليتك تعرفين كما عانيت بعد فقدك، وكم قست على الأيام بعدك؟

مؤلم أن ترمم انهيارا كبيرا داخلك، أن تبتسم، وأن تشعر بملوحة الدموع في فمك، وأن ترقص بينما أنت تهوى على الأرض

بعد مرور أشهر عادت أستاذة رويدة للمدرسة، بعتد أن أنهت مراحل العلاج كحصان أسود فتي، يتسابق رغتم ضآلته ويقاوم رغم ضعفه، ويتقدم رغم مرضه لكنه يشفى بإذن الله.
ذلك الحصان الأصيل الذي يحرز النصر في آخر مراحل السباق، وينتصر رغم هزيمته، ويحقق فوزا فريدا مخيبا لكل التوقعات التي تراهن على خسارته لقلة إمكانياته، وانعدام خبرته، وقلة تجاربه. كم هو إنجاز عظيم!
يا الله:
أعوذ بك من أن تطرق يدي بابا غير بابك، ومن أن تلوذ نفسي إلى مأوى غيرك، ومن أن أنكسر عند أحد دونك، وأعوذ بك من الليال الموحشات، والأيام العسيرات، ومن السخط على قضائك، ومن القنوط من رحمتك وحلمك.

قصة: محارب السرطان (لن تستطيع معي صبرا)

بقلم: حسين عبد الكريم العباد

- القدر -

في يوم صيفٍ حار، زادته سعيراً نظرات أبي لي بين الحين والآخر ونحن ننتظر على تلك المقاعد الحديدية في أحد المستشفيات المزدحمة بالمرضى. أربكتني تلك الأسئلة التي ضل يكررها لعشرات المرات: هو قال لك أحضر معك هذا الموعد؟ ألم يقل لك لماذا؟ لعله يريدني أن أوقع على أوراق فحوصات؟ في الحقيقة، حتى أنا لم أكن أعرف لماذا أراد الطبيب حضور والدي في زيارتي هذه. على مدار شهرين كاملين ترددت فيها بمفردي عدة مرات على زيارة الدكتور بسبب تلك الكتلة التي ظهرت في جسدي السمين المليء بالكتل الدهنية. لم أكن لأميزها عن شحوم جسدي لولا أن رآها أحد أصدقائي ونحن نلهو في

بركة السباحة. فجأة، اخترق فوضى المكان صوت الممرضة وهي تنادي: هوسين أبد ولكريم، هوسين أبد ولكريم. لعلها المرة الأولى التي أسمع فيها اسمي (حسين عبد الكريم) ينطق بلسان ممرضة فلبينية. انتفض أبي مسرعا وهو يقول: نعم! نعم! دخلنا إلى العيادة وكان في انتظارنا طبيبٌ لم أره من قبل! كانت ملامحه حادة، كان وجهه بلا مشاعر أقرب إلى الرجل الآلي منه إلى الإنسان. وبسرعة بادر بالقول: يجب أن يذهب ابنك إلى مدينة الرياض ليكمل فحوصاته في مستشفى الملك فيصل التخصصي. أنا أعرف هذا المستشفى. لطالما ذهبت إليه جدتي لعلاج قلبها المنهك. لكنني لا أشكو من قلبي؟! لماذا لا أستطيع أن أفهم كلام الطبيب وهو يتحدث بلسان عربي فصيح! لماذا لا أستطيع سماع صوته؟ التفت إلى أبي لأن وجهه وقسماته هي اللغة التي أفهمها دائمًا! فبمجرد أن أنظر إلى وجهه أعرف ما يريد، أفهمه إن كان مستاءاً. لا حاجة لأن يبتسم لأعرف مقدار سروره. لكن هذه المرة لم أفهم وجهك يا أبي، هل هذه دموعك!؟ لكنك لا تبكي، لم أرك باكياً من قبل! هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة؟ شردت لبرهة مع أفكاري حتى أفزعني كلام أبي لي وهو يقول بصوت حزين: لا تخاف يا ولدي أعرف ناس كثير تشافوا منه، شف زوجة أبو علاء وأخوي صادق شفيوا.

في طريق عودتنا إلى المنزل توقف الزمن وكأننا عدنا من حدود المجرة بسرعة الضوء وكل شيء حولنا يتحرك ببطيء شديد. الصمتُ كان أقوى من هدير محرك سيارة أبي المهترئ. لا أعلم ما يدور في خلد أبي الشارد الذهن لكني أعلم ما يدور برأسي. في حقيقة الأمر لم أكن مدركا لخطورة هذا المرض كل ما أعرفه عنه أن المصابين به يتحولون إلى مخلوقات فضائية وأنه يستنزف قواهم حتى الموت، ما يشغل تفكيري الان هو من سأخبر من أهلي وأصدقائي أولاً، هل سيتأثرون؟ كيف أخبر أمي أن المرض الذي فتك بصديقتها هو نفسه من يسكن جسدي الآن؟ يقطع أبي مشاهد تفكيري الهزلية بقوله: لا تقول حق أمك أنا بقولها.

لطالما حلمت أن أصبح طبيبا، كنت للتو قد ابتعثت لدراسة الطب في المملكة الأردنية لكن دوائر القدر أجبرتني على ترتيب أولوياتي. كان لزاما على أن أجاري رياح القدر فقد جرت بما لا تشتهي سفينة أحلامي وطموحاتي. كان لزاما على أن أرخي الأشرعة حتى تعبر تلك الرياح، قد يتأخر إبحاري لكنها لن تغرق سفينتي وسأبحر بها نحو المستقبل.

ـــ الأسرة ـــ

أنا الابن الرابع من بين عشرة من الأبناء، أبي يعمل معلما لمادة الجغرافيا في المرحلة الثانوية، إلا أنه دائمًا ما يتفاخر بأنه عمل في خياطة المشالح مع أخيه الأكبر أثناء دراسته الجامعية وكان يُؤمن مصروفه اليومي من هذه المهنة. كثيرا ما يردد على مسامعنا إذا تقاعسنا عن الدراسة: كل شي موفر لكم الحين المفروض تجيبون 100 %، على أيامي كنت أخيط و أروح الجامعة بالدراجة في الحر. قد يتسامح أبي في كل شيء إلا الدراسة فهو حريص كل الحرص على أن نتفوق وننهي مشوارنا الجامعي. كثيرةٌ هي المرات التي يحقق فيها أبي عن سبب طلبي للمال لكنه بمجرد أن يعرف بأن هذا المال ذاهب للتعليم، فهو ينفق كمن لا يخشى الفقر. ملامح أبي جادةٌ دوما أحبُ أن أسميه (قوة التدخل السريع) فهو لا يوبخنا ولا يقوم بضربنا إلا إذا بلغ منا الأمر

منتهاه وضاقت بنا ذرعا أمي لتطلق نداء الاستغاثة بأعلى الصوت: خل يجي أبوكم وأعلمه، حينها يعم الصمت وتهدأ الجوارح بمجرد سماعنا لهذا التهديد.

أمي في المقابل هي بالنسبة لي (وزارة الداخلية) فهي الشرطي والقاضي والجلاد وقد تغضب على الجميع بسبب فعل فردي من أحد أبناءها فتفرض حضرا للتجول على عدة مواقع استراتيجية من أهمها المطبخ الذي أرنو إليه كلما مللت من المذاكرة. العامل المشترك بين أمي وأبي أن كلاهما يعمل في الخياطة وكلاهما يهتم بأن يكمل أبناهم تعليمهم الجامعي.

كنت أرى في أبي ذلك الرجل الجاد الذي يخشى أن يظهر مشاعره وارتبط اسم أمي في ذاكرة الفتى المراهق دائما بالعقاب والمنع. لكن بعد أصابتي بالسرطان أيقنت أن بين أضلاع أبي قلب عصفور صغير رغم ملامحه الشامخة شموخ الجبال وما تلك القسوة من أمي الا كَونٌ من الحب لم أحسن النظر إليه. لعل الله ابتلاني بهذا المرض لأعرف أن هناك لغات عدة للحب وليست لغات خمس كما في كتاب جاري تشابمان الشهير. فذات صباح استيقظت من النوم لأجد رزقا ساقه الله إلى سريري لم يكن مهماً حينها لمن هذه الريالات المائة بقدر ما كنت مهتما بماذا أصرفها. لكن في ظهيرة اليوم نفسه يسألني أبي عن المائة ريال التي كانت تحت وسادتي لأكتشف لاحقا أنه خبأها ليتصدق بها بالنيابة عني! تُرى كم من الريالات تصدق بها أبي عني من غير أن أعلم ؟

في المقابل كانت أمي أكثر تبيانا لمشاعرها من أبي. يكفي أن أرجع من المستشفى بعد تلقي العلاج لتستقبلني بما لذ وطاب من الطعام الذي أحبه وقد تجنبت أن تضع فيه ما لا يتناسب مع حالتي الصحية فكانت مطلعة على تلك المحظورات التي يجب أن أمتنع عنها. ولا تزال تسألني طوال اليوم: ما ودك تأكل تفاحة؟ شرايك أسوي لك روبه بالخيار ترا تبرد على معدتك؟ وما يضحكني أنها تغضب إذا لم آكل ما أعدته لتقول: بكيفك أنت الخسران! لكنها وبعد مرور دقائق معدودة تعيد الكرة لتسألني إذا ما أَردتُ أن تعد لي شيئا اخر. حتى أن إخوتي وأخواتي دائما ما يطلبون مني أن أسألها أن تطبخ لنا بعض الأكلات الموسمية التي لا تطبخها إلا نادرا، كالهريس والمضروبة والعصيدة. وكنت لا أخفي التعالي عليهم بابتسامة ماكرة فكان يكفي أن أذهب إلى أمي مدعيا التعب لأسألها إن كان بالإمكان أن تطبخ لي طبقا من المضروبة التي أحبها، لتهب مسرعة نحو المطبخ رغم معرفتها أني أدعي التعب وأن ادعائي التعب ما هو إلا دموع التماسيح.

كل ما يحتاجه الإنسان لمواجهة الصعاب هو حبٌ غير مشروط ودعمٌ من محبين لا ينتظرون جزاءا ولا شكورا. وأي حبٍ أو عاطفة تصمد أمام عاطفة الأمومة وحنان الأبوة.

ـــ البداية ـــ

الفضول هو الدافع الفطري وراء كل هذا الإرث الإنساني، لولا الفضول لما اخترق غاغارين الغلاف الجوي إلى الفضاء وما كان لِ ارمسترونغ أن يقول جملته الخالدة على سطح القمر " خطوة صغيرة للإنسان، قفزة عملاقة للبشرية ".

لا أنكر أن الفضول تملكني لخوض التجربة مع السرطان ولا أكشف سرا أنه ورغم الخوف وألم العلاجات الكيميائية إلا أن الفضول الصغير داخل أحد شبكات دماغي العصبية، يدفعني بحماسة نحو تجربة الأشياء الجديدة. دائما ما تكون البدايات هي الأكثر إثارة وتشويقا فبالرغم من امتلاكي لذاكرة ضعيفة نوعا ما إلا إنني لن أنسى أول دراجة وأول لعبة فيديو حصلت عليها والتي لا زالت رائحتها عالقة في ذهني كلما ذهبت إلى متجر الإلكترونيات. لا أنسى أيضا تلك الحلقة الضخمة في أحد غرف المستشفى الباردة التي لطالما قد شاهدتها على شاشة التلفاز، كان منظرها رهيبا على أرض الواقع وكأنها آلة لعبور الزمن. حينها استقبلني الطبيب وأملى على اشتراطات السفر عبر هذه الآلة فقال: عندك حساسية من أي دوا؟ عندك ربو؟ سكر؟ ضغط؟ أجبت بالنفي على كل تلك الأسئلة. وفي الحال استلقيت على ذلك السرير الضيق ولست أدري إن كانت المشكلة من السرير نفسه أم من ضخامة جسدي. أمسك الطبيب بيدي ليبحث عن أحد الأوردة ليدخل فيه الإبرة التي من خلالها سيقوم بحقني بصبغة من نوع ما لكنه لن يقوم بذلك بشكل مباشر؟ بل عن طريق مضخة يتحكم بها من غرفة أخرى. قبل أن يغادرني إلى غرفة التحكم قال لي: بتحس بحرارة بجسمك وهذا شيء طبيعي. لا شيء طبيعي في هذه الغرفة حتى ذلك اللباس الرقيق الذي بالكاد يستر جسدي أو أن يمنحني القليل من الدفء. خاطبني الطبيب عبر أحد مكبرات الصوت: خذ نفسا عميقا واكتم النفس! كانت تلك هي كلمة السر، فبعدها تحرك السرير نحو تلك الحلقة الضخمة مصدرة صوت محرك نفاذ وبعدها بقليل تسللت إلى جسدي تلك الصبغة. شعرت بالخوف، فالحرارة تسري في عروقي، إنها تتدرج شيئا فشيئا! لماذا لا أستطيع التنفس لقد ارتفعت حرارة صدري الآن ووصلت إلى رأسي الذي بدأ بالتعرق؟ وكأن روحي تُنتَزع من جسدي هذا هو بالتأكيد الوصف نفسه الذي أخبرنا به معلمنا عن انتزاع الروح؟

بدأت الحرارة بالتلاشي وهدئ صوت آلة الأشعة المقطعية، لأسمع صوت من بعيد: الحمد لله على السلامة، خلصنا. كانت تجربة مخيفة ظننت أنني سأنتقل عبرها إلى عالم آخر. سرعان ما ودعني الطبيب بمثل ما استقبلت به من حفاوة وتكريم وقد نصحني بالإكثار من شرب الماء لأتخلص من تلك الصبغة السحرية. أثناء خروجي من المستشفى رحت أقصص تجربتي المرعبة على أخي الأكبر بكافة تفاصيلها وكيف أنها كانت من أسوء التجارب التي خضتها. لم أكن أعلم أن الأسواء لم يحن بعد وأن هذه التجربة لم تكن إلا بداية حربي مع مرض السرطان.

ـــ العلاج ـــ

شهور ستة كانت كفيلة أن تقربني أكثر نحو اليقين، فالسماع بالشيء أمرٌ والنظر إليه أمرٌ اخر والوقوع فيه هو عين اليقين. تجرعت خلال هذه الشهور الستة مرارة العلاج الكيميائي، فالبحث عن وريدٍ في يدي أصبح أمرا صعبا فقد تلاشت أوردتي وأحرقتها جذوة العلاجات. تذكرت تلك العبارة التي كان يرددها جدي بين الحين والاخر: " ما تحرق النار إلا رجل واطيها ". نعم لقد حان الوقت لأن أستشعر معاناة المرضى وأوجاعهم، لقد آن لي أن أفهم الحياة بشكل مختلف.

في أول موعد لي للبدء بالعلاج الكيميائي بعد عملية جراحية لاستئصال الورم، قررت أن أنظر للأمر على أنه تجربة فريدة للبحث عن مفهوم آخر للحياة. في الواقع لم يتبلور هذا المفهوم بشكل واضح في بداية الأمر لكنه بات أكثر وضوحا في كل مرة أستشعر فيها تلك النعم التي كانت مدفونةً في عقلي اللاواعي. وأي نعمةٍ مغبونٌ فيها الكثير من الناس كالصحة. فإدخال الإبرة في أحد أوردتي قبل البدء بالعلاج الكيميائي لا يستغرق أكثر من دقيقة واحدة لكن بعد أن لامست عروقي ذلك العقار الكيميائي ضمرت واختبأت، لعلها كانت خائفة من المواجهة. أما أنا فلا أريد أن أخاف ولا أريد أن أختبئ لن يسلبني ذاك الظلام شعلة أملي وشمس تفاؤلي، سأقبل على الحياة لأضيف عليها ألوانا جديدة من حب التغيير وبث الأمل وتغيير المستقبل للأفضل. بِتُ أعلم أني محاطٌ بكثير من النعم ولربما كنت في حاجة لهذا الدرس لأتعلم أن أروى الماء ما كان بعد عطشٍ شديد، وأن أكبر الفرح ما كان بعد شدة، وأن أجمل اللقاء ما كان بعد غياب. ولطالما كان هناك سؤال صعب مخبأ بين طيات الورق للطلبة النجباء.

عاهدت نفسي ألا أستسلم للمرض، أن أصبح قويا وإن لم أستطع سأتظاهر بذلك. فالتظاهر بالقوة رغم الضعف، قوة. أن تحجب ضعفك عمن تحب شجاعة تتطلب الكثير من الصبر. ولعلي نجحت إلى حدٍ كبير في هذا المسعى. ففي أحد المرات قابلت أحد الأشخاص وحالما قلت له أنا ابن فلان بادرني بالقول: يا هلا ويا مسهلا، شلون أبوك؟ واستمر بالحديث حتى سألني سؤالاً لم أستطع فهمه في البداية فقد سألني: أخوك اللي مهب صاحي إن شاء الله أحسن. أربكني هذا السؤال فلا أعلم أن لي أخاً مجنوناً لكني استدركت بعد فترة بأنه كان يقصدني بكلامه وأن كلمة (مبج صاحي) تعني مريض. هل كان ينتظر مني أن أصبح حبيس البيت؟ أن أتنقل محمولا على الأكتاف أو على كرسيٍ متحرك؟ نعم العلاج صعب ومضاعفاته أشد وأصعب لكن الأصعب أن تصبح أسيرا له.

عند نهاية العلاج أصبحت شخصا اخر، صرت اليوم أقوى وبِتُ أكثر وعياً بقيمة الحياة. تلك الحياة التي نزرع فيها حتى اخر نفسٍ منا، فإن لم تحصد ثمار زرعك اليوم ستجنيه غدا حباً ودعاءاً وسلاما. علينا فقط ألا نستسلم وأن نستمر في المحاولة لأن المحاولة تعني ترك أثر، وإن لم تحدث أثرا فلا وجود لك.

ـــ المفاجأة ـــ

لقد شيعتني نظرات الناس لي وحملت نعشي ألسنتهم، يظنون أن النهاية اقتربت وما علموا أن الأمور من تدبير القدير الرحيم وأن أمره إذا قال للشيء كن فيكون.

أن تقترب من الموت كما يراه الكثير ممن يحيطون بك، أمرٌ مفزع! لكن ماذا لو اقتربت مرة ثانية من الموت؟ هل سيصبح للموت ذلك الوهج أو تلك الهالة؟ لقد عاد لي مرض السرطان للمرة الثانية، أحسست بخيبة أمل لبعض الوقت لكن لم أعر للموت اهتماما فأنا خلقت في هذه الأرض لعمارتها ونشر الأثر الطيب هذا ما أحدث به نفسي كل يوم.

على الرغم من أن التجربة الثانية مع السرطان كانت أكثر مرارة بسبب العلاج الكيميائي المكثف الذي تطلب مني المكوث في المستشفى لأسابيع، وبعدها مكثت في المستشفى لمدة شهر كامل في عزلة تامة بسبب مناعتي المتدنية حيث للتو أجريت لي عملية لزرع نخاع العظام. لكن هذه العزلة كانت طريقي إلى الله وكانت صومعتي المليئة بمعدات التعقيم، والأجهزة الطبية هي عالمي الذي وجدت فيه من أكون. في أحد الليالي شعرت ببرد قارس رغم أني أطفأت جهاز التكييف وطلبت من الممرضة غطاءا آخر! ما الذي يحدث لجسدي فقد خارت قواي. اجتمع الطاقم الطبي من حولي وقرروا نزع القسطرة الوريدية من صدري ووضع أخرى في ساعدي لأنها باتت ملوثة وجسدي أضعف من أن يقاوم تلك الميكروبات. لعلها المرة الأولى التي أشعر فيها بأني قريب من الموت لكنها كذلك المرة الأولى التي شعرت فيها بجمال الأشياء. لم تعد الشمس بالنسبة لي عنوانا للحرارة بل هي عنوان للدفء والحياة، هذه الفوضى التي من حولي هي موسيقى تعزف كل يوم أني لا زلت قادرا على ترك أثر في هذه الحياة.

عاد جهازي المناعي يعمل على خير ما يرام وبعد شهر من العزلة قرر الأطباء بأني قد شفيت من السرطان وأن بمقدوري مغادرة المستشفى. كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها أخي الأكبر بعد العزلة ليصطحبني إلى البيت. يا الله ما أجمل أخي وما أرقه؟! لماذا لم ألاحظ هذه الرقة من قبل. ما أجمل لون الشجر وتغريد العصافير. لا أعلم لماذا لم أكن أرى كل هذا الجمال من حولي. حتى أني وقفت طويلا أتأمل المستشفى قبل أن أغادره. فقد عدت للحياة مرة أخرى.

بدأت أكثر من التأمل، فكل شيء حولي يستحق التأمل. هذه الزهرة ليست مجرد نبتة صغيرة هي عالم من الحياة، غذاءٌ لنحلة وجمالٌ لبستان وعلاج لإنسان. وما تلك الرياح إلا لواقح يسوق الله بها السحاب لينزل منه ماءً فيحي بها الأرض بعد موتها.

ـــ المستحيل ـــ

بعد انتصاري على السرطان للمرة الثانية صرت أكثر ثقة بأن لا مستحيل مع الإصرار ولا هزيمة مع الإقدام. وأن المستحيل هو فقط ذلك الأمر الذي يعد خارجا عن قدرة الإنسان الجسدية والذهنية لكن خليفة الله في الأرض قادر على تسخير النعم من حوله لتسهيل الصعاب وتحقيق المستحيل.

بعد عام كامل من شفائي من مرض السرطان للمرة الثانية كان لي موعدٌ مرتقب مع طبيبي لاطلاعي على نتائج الأشعة المقطعية التي لم تعد شغلي الشاغل، فحالما يسألني الطبيب إذا ما كنت مصاب بأحد الأمراض التالية؟ أقاطعه بابتسامة عريضة وأقول له: لا حساسية ولا ربو ولا سكر الحمد لله!! لكن لا زال ذلك السرير الضيق يشغل تفكيري. عند دخولي إلى الطبيب استقبلني بابتسامة عريضة كالعادة وقال لي: حسين ماذا تريد أن تفعل؟ ابتسمت له وقلت: يجب أن أذهب إلى الولايات

المتحدة الأمريكية فعلاجك لا يجدي نفعا، لعلك هرمت يا طبيبي العزيز! ضحكنا كثيرا، بعدها عم الصمت وقال لي: هذا ما كنت أفكر فيه وسوف أقوم بتحويل أوراقك في الحال لكي تقوم بعملية زراعة نخاع العظم من متبرع. كنت متصالحا مع ذاتي، لم أشعر بالغضب كنت مطمئنا أن أموري كلها إلى خير وأن جزاء الصبر، جميل. فقد يكون هذا درسٌ آخر من دروس الحياة التي لابد أن يكون لها أثر على منهاج حياتي.

عامٌ كامل مر وأنا أتلقى العلاج في الولايات المتحدة الأمريكية، توصلت لقناعة أن العلاج في وطني لا يختلف عما هو موجود في هذا البلد المتطور. لعلهم يولون الجانب النفسي للمريض النصيب الأكبر. أتذكر أن الإخصائية الاجتماعية في مستشفى الملك فيصل التخصصي قابلتني في أحد المرات وسألتني بعد التعريف عن نفسها بسرعة البرق: تشتغل؟ أبوك يشتغل؟ بيتكم ملك ولا إيجار؟ كم عدد أخوانك؟ تحتاج شي؟ يالله، مشافي. بعدها لم أرى تلك الأخصائية الاجتماعية من جديد فقد ذهبت دون رجعة. لكن الأخصائي الاجتماعي في أمريكا كرر زيارته في كل موعد لتلقي العلاج! كان يتحدث معي ويحاول أن يجعل تجربتي العلاجية مريحة فقد عرض على تذاكر للسينما وتخفيض على تذاكر مدينة الملاهي وكان يحدثني في كل مرة عن أماكن يمكن لي زيارتها.

هي دعوة للحياة هذا ما كان يمارسه معي الأخصائي الاجتماعي هي دعوة لأتعرف على أشياء لم أكن لأعلم بوجودها. لم يذكر لي أبدا ما على اجتنابه. لم يكن كما أولئك الأشخاص السلبيين.

ـــ المثابرة ـــ

خمس سنوات مرت حاربت فيها السرطان لثلاث مرات، تخرج رفاق الدرب من الجامعة. كان حلمي أن أصبح طبيبا لكنني لا أستطيع المواصلة فدراستي في الأردن البعيدة عن مكان علاجي صعبت استمراري في الدراسة هناك. لم أعترف بالهزيمة من مرض السرطان ولن أعترف، كان على أن أعيد ترتيب الأوراق. أخترت دراسة الهندسة الكهربائية في أحد الدول الخليجية لقربها من المستشفى الذي أتعالج فيه. كنت متحمسا لأن أحقق هذا الهدف سعيت لأن أقول للجميع أن الفشل هو مرآة لعقول اليائسين وأن الإنجاز الحقيقي هو تجاوز الصعوبات وتحقيق الهدف.

بعد عام من التحاقي إلى الجامعة عاد مرض السرطان للمرة الرابعة محاولا زعزعت استقراري. كان جوابي هذه المرة بكل هدوء: هزيمتك هذه المرة ستكون وأنا على مقاعد الدراسة. استمر علاجي ثمانية أشهر ترددت فيها كثيرا على المستشفى وقد فاتتني كثيرٌ من المحاضرات لكني لم أفقد الأمل. لا أنكر أن التعب قد ينال مني فأسأل نفسي: ما فائدة هذه الدراسة فقد أموت في أي لحظة. لكن سرعان ما أعود إلى الدراسة ففكرة الموت مع المحاولة أشرف وأعز من الموت مع الاستسلام.

تمكنت من التغلب على السرطان للمرة الرابعة كانت هزيمته نكراء هذه المرة. فها أنا ذا أكمل مشواري الجامعي. لم أقف مستسلما بادرت لأن تكون لي بصمة في هذه الحياة، فشاركت متطوعا في الكثير من الأعمال التطوعية. اختارتني شركة توتال للذهاب

مع 120 طالبا حول العالم إلى باريس لحضور ورش عمل في مقرهم الرئيسي. ولوطني حاولت أن أرد له بعضا من أفضاله وأن أكون سفيرا ليفتخر بي بين الأشهاد. فمثلت المملكة العربية السعودية في أكبر حدث في جامعتنا وهو (القرية الثقافية) لثلاث مرات متتالية وقد فزت في جميعها بالمركز الأول على التوالي كأفضل جناح يمثل ثقافة دولة من بين 25 جالية دولية وتم تكريمي من قبل السفير السعودي بسبب هذا الإنجاز. كنت أحاول أن أنخرط في الكثير من الأعمال الجزئية والبطولات العالمية ككأس العالم للدراجات الهوائية، والألعاب الأولمبية للمعاقين وقد أثبت أن محارب السرطان يستطيع الإنجاز وأن يصبح رقما صعبا. فاختارتني إحدى الشركات للعمل على تنظيم البطولة الأسيوية لألعاب الصالات في دولة تركمانستان وأنا لا زلت طالبا جامعيا.

تعلمت أشياء جديدة أثناء دراستي فلا مجال للسكون، فهنالك أشياء جميلة يجب أن تستكشف. تعلمت رياضة الغوص التي جعلتني أقترب أكثر لجمال عالم لا يراه الكثير من الناس. إن في البحر من السكينة والجمال ما قد يزيل عنك تعب الحياة. سأحاول جاهدا إنشاء مركز لتعليم رياضة الغوص لمرضى السرطان لأنهم يجب أن يُقبلوا على الحياة وأن يعيشوا اللحظة ويتفكروا بأن نظرتهم الإيجابية للكون قد تصنع المعجزات.

يقول محمود درويش " إن على هذه الأرض ما يستحق الحياة ". عقدت العزم بأن أسعى إلى تحقيق أحلامي ولن أخشى السقوط في عالم أحلامي، لأن عالم الأحلام بلا جاذبية.

— الروح —

عشرة سنوات عبرت بحلوها ومرها. استطعت أن أشحذ فيها همتي لمحاربة خصم لدود. لكن روحاً قد سُلبت مني فأنا الآن بلا روح. أنا سعيد بما حققت وما أحقق لكن شيئا في داخلي يصرخ بأن روحك لا تزال مفقودة. كيف لي أن أحيا إن لم أجدها؟ وما هو السبيل؟

في ظلمة ممتدة بحجم المجرات كان جسدي يبحث عن روحي، وفي كل مجرة ألقى أبواب مؤصدة وأسوار عالية فالكل يظن أن أجنحة الموت ترفرف فوق رأسي وجسدي المنهك بالجراحات لا يمكنه احتمال معركة أخرى مع السرطان. بينما أنا تائه في هذا الكون الفسيح رأيت قبسا من نور يمتد إلي لينتشلني من الظلمة ويعيد إليَ روحي التي سُلِبت مني. هي النهايات السعيدة التي محت كل تلك البدايات التعيسة، هي روحي ونفسي وسكني، هي زوجتي.

شهور ستة بقيت على موعد زفافي الذي اخترت أن يصادف اليوم نفسه الذي اكتشفت فيه إصابتي بالمرض. كنت انتظر هذا اليوم بفارغ الصبر لكن هناك موعد منتظر قد يعيدني إلى ذلك الظلام الحالك. لا أعلم ما حل بي هذه المرة فأنا متردد أن أذهب إليه. وبخطى متثاقلة دخلت على الطبيب، دكتور أخبرني أن المرض لم يعد. قل لي أنك ستحضر يوم زفافي أني لست مضطرا أن أخوض التجربة للمرة الخامسة. يخبرني الطبيب أن السرطان يريد أن يفسد فرحتك وأنت أقوى وأكثر عزما.

وهل أنا قوي لدرجة أن أسلب من فتاة حلمها وأن ترى فتى أحلامها يذبل قبل أن يجمعهم حتى سقف واحد. هذه هي المرة الأولى التي بكيت فيها بسبب السرطان فلم أمتلك نفسي أمام الطبيب واجهشت بالبكاء. كيف لي أن أخبرها أن موعد زفافنا قد يلغى ولربما إلى الأبد. لكنها أعادتني مرة أخرى للحياة وقالت: ما يأخذني إلا الموت وغيره ما يفرقنا.

(قد أوتيت سؤلك يا موسى) وماذا عساي أن أطلب فقد أوتيت سؤلي ووهبني الله روحا أسكن إليها. خمس سنوات مرة على زواجنا، لم أكن قبلها أكثر قوة وأشد إصرارا على مواجهة الصعاب. فهي ساريتي وأشرعتي وسفينتي التي عادت للإبحار مرة أخرى نحو مستقبل مشرق بإذن الله.

كيف للإنسان أن يفقد الأمل وفي هذه الحياة من الجمال ما يملأ المشرق والمغرب.

قصة: وراء كل ابتلاء رب رحيم

بقلم: يوسف عبد العزيز الشاهين

أحببت ان أروي حكايتي وأقص لكم رحلتي. رحلة الألم حين امتزج بالأمل ورحلة الصبر الذي انتهى بالظفر. علمتني أنه لا يأس مع الله سبحانه وتعالى وأن الحياة والشفاء والسعادة بيده وحده .

كانت أولى مراحل تلك الرحلة في أواخر العام ٢٠١٠م، حيث خرجت من أحد ملاعب كرة القدم فخورًا بإنجازي و فرِحاً بما وصل مسمعي من عبارات المدح والثناء في تلك الدورة (حارس مرمى) .

ومع مرور الوقت ومضي الأيام أحسست بتوعك في ذراعي الأيسر، والتي بدأت بالألم وثم التورم وهو ما دفعني لزيارة

لمشفى ومراجعة الطبيب .
ومع المراجعات الطبية أفادني الطبيب بأنه ورم طبيعي وتم استئصاله بعملية جراحيه وأخذ بعض العلاجات البسيطة وبعد العملية بأسبوع راجعت لدى الدكتورة زهراء حسين، لأجدها تحمل هم ابلاغي الخبر بأن الورم سرطاني شديد وأن عصب الحركة اليد اليسرى مع استئصال الورم تم قطعه .
صارحتني بكل يسر وسهوله واسلوب جدا راقي وكانت الصدمات تتوالى بين حين وآخر و خبرتي بهذا المرض محدودة كل ما أعرفه أنه لم يشفى منه أحد ، ومن أصيب به فلينتظر المنية.
كان الموقف صعباً بالنسبة لي، وعزز مخاوفي مواقف أهلي حولي . استمر الألم حتى بعد الاستئصال وتفاجأت بعدها بفترة قصيرة جدا بعودة الورم وبشكلٍ سريع ونمو أكبر مع تزايد الألم.
في بداية ٢٠١١م عانيت من الألم والمعاناة وصرت أتجول من مستشفى الى مستشفى .وبعد ٦٠ يوما من الجراحة، رجع المرض من جديد وبشكل ملحوظ وسريع وتفشى لينتقل إلى (الرئة والكبد).
بدأت بعدها رحلة البحث عن علاج من مستشفى الملك فهد التخصصي بالدمام والذي يأس من علاج الحالة، تمت احالتي إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض وبعد الفحوصات بدأت في العلاج الكيماوي عن طريق الوريد. كانت فترة العلاج شهرين خضعت خلالها لـ ١٥جلسة وفترة كل جلسة ٨ ساعات. تألمت.. ذبلت.. ضعُفت. . تغير شكلي وتساقط شعري. في داخلي انتظار وترقب. انتهى العلاج الكيماوي وتم إجراء الفحوصات والنتيجة (مازال الورم موجودا في منطقة اليد)
اكملت الرحلة إلى العلاج الإشعاعي، وبدأت العلاج الإشعاعي في منطقة اليد ٣٠ جلسة علاجية، والنتيجة مازال الورم موجودا في اليد . لم ينهه الكيماوي و لم يخضع للإشعاع .
تم تحويل الملف إلى الطبيب الجرّاح محمود شاهين ،حيث تفاجأ الدكتور بأن الورم متأصل داخل الأحشاء والأعصاب و يصعب استئصاله، ليكون الحل (بتر كامل اليد) .رفضت الفكرة ،فهي يدي و مازلت املكها و سأحافظ عليها قدر ما أستطيع ..
طلبت من الدكتور إرسال التقارير إلى خارج السعودية للعلاج فرفض ذلك وكانت خيرة لي للتقرب إلى الله أكثر وأكثر، بعدها طلبته أن يعطيني مهله للتفكير ،أثناء فترة التفكير نما إليَّ أن أرسل التقارير إلى مستشفى في الصين عرفت عنه لعلاج الأورام وقمت بذلك عن طريق البريد الإلكتروني . وتم الرد بأنه يوجد علاج بواسطة التبريد وتبلغ التكلفة لذلك ٤٨٠٠٠٠ ريال سعودي. استخرت الله سبحانه وتعالى وارسلت التقارير الطبية إلى أكثر من مستشفى داخل السعودية وكانت إجابتهم جميعًا بنفس الرد السابق وهو بتر اليد.
لجأت إلى الله، استخرته، وبدأت بالرقية الشرعية والطب البديل. لزمت القرآن. والتزمت بالأذكار. قمت الليل وطلبت الله الشفاء وانتظرت الفرج.
كانت أياماً صعبه، قررت بعدها الذهاب إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة لأداء مناسك العمرة والدعاء وشرب ماء زمزم.
وبعد عودتي ذهبت الى المستشفى لموعدي. فحوصات جديدة وبانتظار النتائج

دخلت العيادة، ليست كالمعتاد، مكتظة بالأطباء وكان ذلك علامة اندهاش واستفهام لدي ؟! لماذا يجتمعون في شأني ؟! رحب بي الاستشاري الدكتور محمد ميمون. علامات الفرح والاندهاش تسمو محياه حيث قال وباللهجة العامية وبدون مقدمات: "أمانه وش كنت فاعل خلال هذه الشهرين ." فقلت له لم أفهمك يا دكتور. فأجابني وبقوة: إن نتائج الفحوصات لم تظهر أي خلية سرطانية في الجسم. هويت ساجدًا لله عز وجل حمدًا وشكورًا على رحمته وعفوه ومغفرته هذا ما طلبته من ربي فأجابني.

لم يهزمني السرطان، أنا هزمته، أنا استعنت بربي عليه. أنا اليوم أحد منسوبي فريق جمعية مكافحة السرطان بالأحساء التطوعي.

أزور مرضى السرطان. أحكي لهم قصتي. أزرع الأمل في نفوسهم قدر ما أحياني، أذهب بدراجتي الهوائية التي أهواها ليعرف الجميع أن ثقتي بربي أنجتني. وليعرف الجميع أن القوة بالله تهزم حتى السرطان.

*شاركت في مسرح الإبداع كأول مسرح يقام في وزارة الشؤون الصحية بالأحساء، أمام حضور تمتزج فيه كل الثقافات والمستويات الفكرية. لكن كان الإصرار بعد التوكل على الله وتشجيع الزملاء، كان لي بمثابة السراج الذي أضاء الدرب. وضعت في نفسي بأن الكلمة الطيبة وزراعة الأمل، صدقة احتسبها عند الله. كانت خشبة المسرح بالنسبة لي بمثابة اللوحة الفنية التي رسمت فيه تجربتي والتحديات التي مررت بها وما وفقني ربي من مكاسب في حياتي، بمثابة النسيج الرائع الذي زانه تشجيع الحضور وتفاعلهم معي.

والحمد لله على توفيقه، فشكرا لله تعالى لأنعمه والحمد لله على ما أولاني من مكارمه، وأدعو الباري لكل مريض بالشفاء العاجل.

قصة: كن فيكون

بقلم: مروه محمد الرويحج

كنتُ بعمر العشرين عندما أرهقني النظر إلى التلفاز طويلا. عندما سأمت الجلوس على الأرض. عندما سأمت رقبتي من النظر للأعلى قليلاً حتى أشاهد التلفاز. كنت أمسك صحن " الحَب " أقشره ثم أتناوله. كنتُ ذات العشرين عاماً التي قررت أن تركن الكسل بزاوية الغرفة، أن تترك صحن " الحب ". أن تَمد أصابعها لتدلك رقبتها. لتكتشف أصابعها اليافعة الانتفاخ الذي مد جذوره هناك برقبتها.

لم أكن يوماً من النوع الذي يشتكي من الأوجاع، بل أفضل أغلب الوقت أن أنسى وجعي، أن أتناساه لكرهي الشديد للمستشفيات والعلاجات التي تلازمها. لا أدري ربما كان الله يلهمني لأذهب لوالدتي التي كانت حاملاً بشهرها التاسع، والدتي التي خرجت للتو من المستشفى لأن جوها أتعبتها، مدت أصابعها لرقبتي لتتأكد أن هناك شيئاً بذاك المكان.

لم تكن مواعيد المستشفى سريعة الوتيرة، بل كانت على العكس تماماً، كانت بطيئة كسلحفاة، كرجل كبير السن يسير أمامي في مكان ضيق المساحات، كطفل يتعلم خطواته الأولى. كانت تلك الأيام صعبة نوعاً ما، مرهقة لأعصابي كثيراً. خوفي لم يكن السبب الرئيسي لتعبي النفسي. كنت أريد الوصول للنهاية، للسبب الذي جعل " النفخة " تمد جذورها، وللسبب الذي جعل الدكتور يوخز " النفخة " مراراً لأخذ العينة منها. كانت إبرة العينة طويلة مقارنة بأخواتها. كانت تلك الإبرة مؤلمة. ألمها لم يأتي من المرة الأولى ولا الثانية، شعرت بألمها في الوخزة الرابعة. وبعد الانتهاء من أخذ العينة قال لي طبيب العينات أن أنتظر خارجاً حتى يتأكد من سلامة العينة التي أخذها. جلست في مقعد معدني في مكان مظلم نوعاً ما، خال جداً تماما وبكيت.

بكائي لم يكن لخوفي ولكن لأنني سأمت المواعيد، سأمت المجهول. ولأنني كبشر قليلة الصبر. كنت أكره المجهول، فالمجهول كنفق مظلم لا نهاية له. أما المعرفة، فالمعرفة نور.

كانت " النفخة " ساكنة منذ اكتشافها، لم أشعر بوجع بها ولو للحظة. ولكن كل شيء تغير بعد أخذ العينة. أكانت " النفخة " تشاركني شعور فراغ الصبر؟ أكانت " نفختي " غاضبة؟ قانطة؟ أم كانت نائمة وأيقظتها إبرةُ الدكتور؟

في الموعد الأخير أحضرت والدي. كنت بغرفة الانتظار عندما نادت الممرضة باسمي. دخلت غرفة الطبيب لأرى والدي جالساً بالمقعد مقابلاً الدكتور. أوراقاً كثيرة تقابله ممسكاً بقلم بيديه لتوقيعها. لم أسأل الدكتور عما بي، لم أسأله عن تشخيصه لحالتي ولم أسأل أحداً عن الأوراق التي كان والدي يوقعها. كنت أشعر بسلام يعتريني، ربما شعر عقلي بوجود شيءٍ ما وجعلني أتجاهل الأشياء التي كانت تجري حولي لسلامة بالي. حتى لا أفسد السلام الذي أحاط قلبي قبل جسدي.

عند الساعة السابعة مساءاً أغلقت والدتي الباب على نفسها، كنت أعرف أنها تقيم فرضها ولكن عند خروجها كانت عينيها الطاهرتان محمرتان احمرارا يشبه احمرار عينيّ بعد البكاء، بعد نصف ساعة سمعت طرقات بالباب. سمعت خطوات القادمين وإغلاق باب المجلس. أخبرتني أختي الكبرى أن جدتي وخالاتي قد حضرن.

قد يستغرب البعض عدم رغبتي بمعرفة ما بي، ولكنني علمت عندما أخبرني والدي عن أوراق التحويل للتخصصي. علمت قبل أن تبكي أمي وقبل أن تأتي جدتي وخالاتي. علمت لتجربة قريبة لنا عندما أصابها السرطان وعندما تم نقلها لمشفى التخصصي. العجيب بالموضوع أن أحدهم أخبرني بقصتها قبل شهور قليل من اكتشافي لـ " النفخة"، فمرض تلك المرأة كان منذ سنين ولم يحدث للتو. أأخبرتني قريبتي بقصة مرض تلك المرأة التي انتهت منذ سنين لأن الله أرسلها؟ ليطمئن قلبي؟ . آمنت وقتها أن الله يرسل أشخاصاً لنا حتى يُطمئن قلوبنا وأنفسنا. لا يفجعنا الله بما وضعه في طريقنا، يمهد الطريق بلطف، يمهد الطريق برحمة.

أأتاكم شعور السكينة يوماً كنسمة هواء باردة في يوم شديد الحرارة، كالشتاء بعد صيفٍ حارق، كالفرج بعد الضيق. مرضي كان كنسمة هواء باردة. مرضي كان الفرج الذي كنت أنتظره لسنين عدة، مرضي كان علامة الله لي، كان اطمئنان الله لقلبي الذي لم يعرف السكينة إلا بالورم. كان مرضي يحملُ رسالة لي. وكانت الرسالة " إذا أحب الله عبداً ابتلاه ". الله يحبني. كانت تلك الجملة تتكرر بعقلي مراراً، في قلبي تكراراً. كان قلبي يطير فرحاً. اختارني الله " أنا " رغم عائلتي الكبيرة، رغم عالمي الضخم ليطمئنني أنه هنا في قلبي وأن رحمته وسعت كل شيء.

قبل اكتشافي للمرض كنت سوداوية، أكره الحياة. لا أرى سوى اللون الأسود والرمادي منها. كنت أفكر بطريقة لا عقلان. حتى أهداني الله المرض. فالورم كان هدية الله، كان نعمة الله، كان لطف الله على روحي.

لم أحزن عندما علمتُ أن ما بي هو " ورم لمفاوي "، ورم يقع برقبتي والآخر بين قلبي ورئتيّ. لم أحزن عندما أخبرني الدكتور المختص بالأورام بخطة العلاج الكيماوي يتبعه الإشعاعي. لم أحزن عندما قال لي أنه سيتمُ تنويمي لأسبوع لعمل التحليلات اللازمة ولعمل الأشعة المطلوبة.

كان الوقت ليلاً عِندما حضرت للمشفى حتى يُكمل أبي أوراق التنويم. لم أعلم ما الذي ينتظرني خلف الأبواب المغلقة لقسم الأورام. لم أعلم أنني سأصبح ضعيفة قبل أن أقوى. لو علمتُ أنني سأبكي كطفلة أضاعت لعبتها لبكيت في ذراعيّ والدتي أو أختي الكبرى قبل أن أستلقي في سرير المستشفى بالليلة الأولى.

قابلت امرأة كبيرة بقسم الأورام مريضة بسرطان القولون، كانت تلك المرأة ضاحكة مستبشرة لم يزعزع المرض عالمها. ورأيت أخرى صغيرة بالسن يائسة وبَنت حولها جدراناً من حديد. ما أخافني ليلتها أنني رأيت نفسي منعكساً بتلك الفتاة اليائسة. كنتُ

أبني جدراناً حول قلبي، كنتُ أسمح للشيطان بالدخول إليه للعبث كما يحلو. لم يغير موقفي ليلتها بجانب الخوف، إلا ما قالته المرأة الكبيرة بالسن، قالت لي أن المرض مقدرٌ لنا وأن مالنا لن يصيب غيرنا. قالت لي أنني أنا من أقرر وأنا من أختار الطريق سواء كان الرضا بما حدث والمحاربة، أو اليأس وفقدان الأمل، ويتساوى فقدان الأمل بالقنوط من رحمة الله والعياذ بالله.

اتخذت قراري ليلتها عندما استلقيت بالفراش، أسمع صوت أمي هادئاً، داعياً الله. قررت أن أكون أقوى من الشيطان الذي يأتي متنكراً كالحمل، طارقاً باب الأمل بقلبي، لينشر الفساد بمملكتي. وقفت عند الباب متسلحة بإيماني وبرحمة الله التي يبعثها بأوردتي وطردت الشيطان من عتبة الباب. لم أيأس بعدها، لأن الله معي. وما قوى قراري هو رؤية ضُعف أمي وقلة حيلة أبي وحزن أخواتي. كان على أحدنا أن يُصبح أقوى. وأصبحتُ أقوى لأجلهم. حتى لا يُثقل الحزن أرواحهم ولا يكسُر حزني الأمل الساكن بضلوعهم وضلعي.

بدأت برحلة العلاج بعد مدة التنويم. ما ثبت بعقلي كان الكيماوي شفاف اللون، نوع محدد من العلاج الذي يعطى بكمية قليلة في حقنة عن طريق الوريد، كان السائل شفافاً جداً وبشفافيته عظُم ألمه. كان حارقاً لأوردتي.
كانت الممرضة التي تضعه تحاول أن تبعث الطمأنينة بي بتدليك مسار الحقنة بذراعي ولكنه لا يهدأ، لا يهدأ أبداً كنار غاضبة.

تختلف أنواع الأورام من شخص لآخر ولكن نتشابه بأوجاع الكيماوي، نتشابه عندما نشعر بالغثيان، عندما نريد النوم لساعات طويلة رغم استيقاظنا للتو. وعندما نشعر أننا متعبين طوال اليوم، وعندما نشعر أن الطعام كالرماد في أفواهنا. والشيء الذي نتشارك به جميعاً هو تساقط الشعر. تساقط شعري كان مؤلماً لحد ما ولكنه كان شافياً جداً. كان التساقط يُقوي عزيمتي شعرة بشعرة.

كنت أحارب المرض بقوة، وأحارب الشيطان الذي أراد ضعفي بشغف. لم أسمح للشيطان أو المرض أن يحطما عزيمتي. كنت مسلحة بإيماني التام أن كل ما سيحدث سينتهي قريباً سواء كان انتهاء رحلتي بالشفاء أو الموت. موعد موتنا مقدرٌ أيضاً، لذلك لم أرهق عقلي بالتفكير بالنهاية. كنت أفكر بالطريق وبالنور الذي وجدته داخل الظلام الحالك الذي سكن روحي بعد اكتشافي للمرض. المرض كان هدايتي وكان هديتي. ومن يرفض عطايا الله؟ لم أنظر يوماً لمرضي كعقبة بالطريق، ولم أنظر له كابتلاء يُشقي. كان مرضي نور. كان مرضي سلام. كان مرضي سكينة وقوة إيمان. كان مرضي مُعلماً لي، علمني الصبر رغم قلة صبري السابقة. كنت أمي تطلب مني مراراً وتكراراً قبل مرضي أن أصبر، وكنت أرد عليها بردي المعتاد " أنا ما أصبر ولا أبي أصبر

". وعند المرض تعلمت فن الصبر، وأحببت الصبر، فالصبر هذب روحي، ملأ قلبي بزهور صفراء وحمراء زاهية اللون، الصبر أعطاني الحياة.

في موعد الجرعة الأخيرة استيقظت أقوى من كل المرات، استيقظت فرحة، فهذه أخر جرعة من ذاك السم الشافي. كانت جرعتي تلك قبل حضور رمضان بأيام قليلة. ذهبت للمشفى، استلقيت على الفراش وبدأت الممرضة بتعليق المغذي، ثم الكيماوي، يتبعه حقنة الكيماوي الحارقة. كان الوقت يتسابق كتسابق دقات قلبي، أكان يحتفل معي؟

قال لي أحدهم مرة أن نهاية السباق هي الصعبة وليست بدايته. كأن تجري بسباق وعند نهايته تشعر أن طاقتك تتسرب وأن رئتيك مرهقتان وأن قدميك لم تعد تريد الجري بعد الآن. تشعر أنك ستهلُك ولكن لا شيء يحدث. كانت أعراض الجرعة الأخيرة مشابهة للحظات الأخيرة من السباق لحدٍ ما. كانت أعراضي كالمعتاد، غثيا، تعب مستمر، ولكني شعرت بأوجاع شديدة في منطقة فخذي. أوجاع تشبه ألم الحرق. وكانت تلك الآلام في تزايد لمدة خمسة أيام متتالية. كنت أشعر أن الوجع الإضافي كان بمثابة الاختبار الأخير لصبري. لم أيأس حتى مع ازدياد الألم كنت أشعر أن الله ينقي روحي من شوائب المعاصي بألمي ذاك.

لم تكن مرحلة الإشعاعي مؤلمة كالكيماوي، بل كانت سريعة كالبرق وبطيئة أحيانا. بطيئة لأنها كانت بالعشر الآواخر من رمضان، كنت بعيدة عن المنزل، بعيدة عن أخواتي، كنت بعيدة حتى بأول يوم عيد وثاني يومٍ أيضاً. ولكن تلك المرحلة كانت الأخيرة من رحلتي. وكنت سعيدة بالنتيجة.

بعد تسعة شهور تامة منذ بداية اكتشافي ل" النفخة "، مروراً بالكيماوي والإشعاعي، قال لي الدكتور المختص أنني سليمة تماماً من الورم. قال لي أنني " متعافية ". تسعة شهور تامة شعرت بعدها أنني ولدتُ من جديد. وأن ما ينتظرني بعد مرضي حياة أخرى لم أعدها من قبل.

السر هنا ليس بالادعاء وأن تدعي أنك أقوى. بل أن تُصبح أقوى. أن تتمسك بإيمانك التام أن الطريق الذي تسير به الآن هو ما أراده الله لك. لا يسيرنا الله لطريق لأنه مليء بالأشواك والشر. يسيرنا به لأن الطريق نهايته نور. لأن الأشواك التي رأيناها بالطريق والتي تسببت بجروح في أجسادنا نقت أرواحنا. فالجروح تلتئم، ولا يبقى إلا الأجر، الأجر الذي ينعمه الله علينا

لأننا اخترنا الصبر، لأننا اخترنا الله وطريق الله، ولم نختر طريق اليأس وطريق الشيطان. السر أيضاً أن تجد مرساتك في وقت الشدة، كانت مرساتي والدتي. كانت مصدر قوتي، مصدر عزيمتي، مصدر محاربتي.

كنت أعتقد أنني سأبكي عند كتابة قصتي، وخاصة مع تذكر كل شيء، ولكن الغريب أن التذكر – وللمرة الأولى منذ سنين – لم يجعلني أبكي. التذكر لم يخلق تلك الغصة التي تبقى بالحلق ومنع الدموع من التساقط لم تتساقط الدموع كتساقط الأوراق في موسم الخريف، بل أزهرت كأرضٍ خضراء تستقبلُ الربيع.

قصة: يوميات محاربةالسرطان

بقلم: نورة عبد الله الشريم

قال تعالى: (وإذا مرضت فهو يشفين)

أليست الحياة جميلة؟

نردد بأمل جديد، غداً ستشرق الشمس من جديد لتعلن بداية لأفراحنا السعيدة. ونحن في ركب الحياة نمضي ودوماً نطمح للتغيير. غير من نفسك وكن أقرب إلى الله سترى الحياة بشكل أجمل.

فمهما تعصف بك الحياة وتتكلل عليك الضغوط والمصائب والمتاعب تأكد حينها بأنه لن تنال إلا ما كتبه الله لك. قال تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

احتسب أجر كل ما يصيبك ولا تدع مكانا للحزن في قلبك، أليس بعد العسر يسراً ...؟! قال تعالى (فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسراً).

إبدا يومك بالحمد لله على نعمه عليك. اجعل لسانك رطباً بذكره واعلم بأن ما اصابك اختبار من الله لك وكله بأجره. لا تقنط من رحمة الله فهو معك ويراك ويسمعك. اقترب منه بكل حالاتك لن تطول لك شده.. ثق بالله. لا الحزن دائم ولا المرض دائم ولا الفرح دائم نحن في دنيا فانية.

فقدت والدي ولم يمضي من عمري حينها سوى 12 عاماً، مررت بالكثير من التقلبات التي ساعدتني على بناء شخصيتي واستمر ذلك إلى مشارف العشرين من العمر، عندما استيقظت يوماً على خبر إصابة والدتي حفظها الله بجلطة دماغية حولت حياتي إلى فتاه يطلب منها الكثير وتحمل أعباء الحياة.

تركت الدراسة الجامعية وبقيت ملازمة لها. أصبحت أهتم بمواعيد أدويتها وأكلها والاستحمام لها.. لم أتذمر يوماً وكنت أتحمل مسئوليات تفوق سني وبفضل الله عز وجل ومن ثم المحيطين بي من عائلتي استطعت رعايتها على أكمل وجه.

وبعد مرور السنة الأولى على مرض والدتي قررت البحث على وظيفة تناسب مؤهلي الثانوي ولكن هاجس الدراسة أصبح شغلي الشاغل، مما اضطرني لترك الوظيفة والتفرغ لإكمال الدراسة مع رعايتي لوالدتي أطال الله بعمرها.

سخرني الله لوالدتي وأكرمني بدعواتها الدائمة لكن لا نعلم الخافي ولا نعلم الغيب. ودون سابق إنذار ظهرت على تغيرات جذرية في حياتي من النشاط إلى الكسل وأصبح التعب يلازمني ويقف عائقاً عن خدمة والدتي. كنت أقاوم لأجلها وأسعى جاهده وما زال ربي يختبر صبري.

قررت الذهاب إلى المستشفى دون أن أخبر احداً بذلك وأجريت بعض الفحوصات لم يتبين شيئاً سوى أنه مصابة بحرارة مرتفعة جداً استمرت لأسبوعين تقريباً.

وفي يوم ذهبت الى الطوارئ وكان صوت الدكتور للان في أذني كان يقول اختي احتمال ان لم تنخفض الحرارة فسوف تنتهي حياتها. وسبحان من اعطاني قوة للمقاومة. استمريت على العلاج إلى ان انخفضت الحرارة بقدرة قادر. ولكن!

استمر التعب وازددت سوء إلى أن ظهرت على بعض التغيرات في جسدي ولم أستطع تحمل ذلك. ذهبت إلى شيخ يقرأ وقد أخبر أختي بأني مصابة بعين واستمريت على القراءة وتحسنت حالتي لكن أعراض التعب مازالت موجودة.

قررت العودة للمستشفى لإجراء بعض الفحوصات الجديدة وبالفعل تبين أن التعب الملازم لي بسبب خلل في نشاط الغدة الدرقية. أجريت التحاليل وتم أخذ خزعة من رقبتي مكان الورم. وتم إعطائي بعض الأدوية لمدة أسبوع ومن ثم المراجعة لاكتشاف النتيجة وبعد أسبوع ظهر على تغير أخر لم يكن بالحسبان، ورم بالغدد الليمفاوية المشابه لعنقود العنب من تحت الأذن اليسرى إلى منتصف الرقبة وكأن الله يخبرني بعد هذي العقود أنها ستفرج لا تيأسي.

ذهبت لمعرفة النتيجة ولم يكن في بالي شيئاً، إلا يارب قويني لأكمل بري بجنتي وأخدمها ولا يؤثر على تعب ولا مرض ...

أخبرت الطبيب بالتغيرات الجديدة وقام بإعادة الفحوصات من جديد وأخبرني بانه لا بد من اخذ عينه أخرى من الورم الجديد. وبالفعل تم اخذ خزعة وأنا بين الألم والصبر.

بعد أسبوع جديد وأمل وألم جديدين، ذهبت للمستشفى وقرر الدكتور عمل جراحة اليوم الواحد لأن مع الخزعة، لم يتبين شيئاً ولم يتضح ما نوع الورم. رجعت للمنزل وصليت استخارة لرب العالمين إن كانت العملية خيراً لي فيسرها يا رب العالمين.

وبالفعل أجريت العملية ومعي أختي وإخواني وأنا بين خوف وتوتر والأمل بأن كل ما أمر به ربي يعلم ومعي يسمعني يجبرني ويرى ضعفي. كان الانتظار طويلاً فأكثرت من الاستغفار وقراءة القرآن. إلى أن سمعت أحداً ينادي (نوره).

استودعت نفسي وأهلي ودخلت غرفة العمليات وأنا أردد قوله تعالى (اللهم تولني فيمن توليت). لا أخفيكم حينها بأني شعرت بكل شيئاً وألم الدنيا وشريط حياتي مر أمامي.

وبعد إجراء العملية خرجت لغرفة الإفاقة لحين زوال آثار التخدير الجزئي، فقرر الدكتور مكوثي لمدة 15 يوماً تحت الملاحظة لحين ظهور النتائج. رفضت وطلبت منه الخروج على مسئوليتي، إذ كنت أفكر بوالدتي فقط. وفعلاً خرجت لأخبرها بعودتي وفرحتها كانت لا توصف مع العلم كل ما امر به لا تعلم به سوء مراجعات روتينية لا تعلم بحج الألم الذي اشعر به خوفاً من أني لا أستطيع رعايتها.

مع مرور الأيام ذهبت لموعدي لمعرفة نتائج الفحوصات وما أظهرته العملية. هدوء الغرفة وصمت الدكتور مع تواجد 15 متدرب ومتدربة من الطاقم الطبي. أصبح الخوف يسيطر علي وازداد توتري. سألني الدكتور: أين والدك؟ متوفي؟ أين والدتك؟ أجبت: لا تستطيع الحضور.

واستمرت الأسئلة!

هل يوجد أحد برفقتك؟

قلت: لا (وفي نفسي ماذا بعد؟)

صمت وحزن خيما على وجه الدكتور وقال: ابنتي نوره ظهرت نتائج الفحوصات والعملية وتبين بأنك مصابة بالسرطان ...!

ابتسمت وكأنها رسالة من رب السماء لي بأن تتحول حياتي من اليأس السابق إلى جهاد جديد وصراع جديد ممتع. كانت ردة فعلي جداً بسيطة ابتسامة ثم اخبرت الدكتور ماذا أفعل!

إلى أين اذهب ...!؟

تم تحويلي إلى مستشفى متخصص بالأورام السرطانية. استلمت جميع الأوراق والتقارير وخرجت من غرفة الدكتور مندهشة. ألم يمر على مسمعي هذا المسمى؟ ما هو السرطان! جلست قليلاً بالانتظار ولا أعلم لماذا بكيت ...! وماذا كنت أريد.

تبين أن لدي نشاطاً في الغدة الدرقية. ذهبت وأنا مكسورة إلى المستشفى المحولة له وإعطائهم أوراقي. وطلبوا مني أن انتظر إلى أن يتم التواصل معي. خرجت وأنا أردد: يارب كن معي. أفكر بوالدتي وتراودني الأسئلة.

هل أستطيع أن أكمل العناية بها ورعايتها ...؟

هل يمكن أن أقاوم التعب ولا يتبين لها شيئاً؟

كل ما يجول في بالي أمي ورعايتها. وكأن ربي مسح على قلبي وعلى رأسي وطمأن قلبي وأنساني أن السرطان يمكن أن يكون مميتا.

وصلت للمنزل وجلست بالقرب من والدتي، حضنتها وأخبرتها بأني بخير ولله الحمد. حينها لم أخبر أحداً بأني مصابه بالسرطان أبداً.

أكملت يومي كالمعتاد بخدمتها ومسئولياتي الأخرى تجاه اخوتي الأصغر مني عمراً، إلى أن جاء الليل فاحتضنت وسادتي وبكيت بكل ما أملك من قوة. ودعوت الله أن يعطيني القوة والصبر والشفاء العاجل. قمت توضأت وصليت ركعتين لرب العالمين ودعوته ثم نمت!

استيقظت وكأن لم يكن شيئاً! وكأن الدكتور لم يخبرني بأني مصابة بالسرطان! أكملت حياتي بشكل طبيعي إلى أن تم الاتصال من المستشفى المختص وتقرر موعداً مع الطبيب المعالج.

الحمد الله، بعد الصبر والتعب والأمل والألم تم انتصاري على السرطان رافعة الراية البيضاء محلقة في سماء الذكريات والأمل.

فمهما تظلم الحياة ليلاً، سيأتي الصبح بإشراقة جديدة. ثق بالله وعطاياه الحمد الله دوماً الحمد الله ما دمت تتنفس ما دمت تتحرك ما دمت تستطيع أن تقاوم. حارب من أجل أن تفوز وتكون مثالا يحتذى به. كن أنت مع الله. اقترب منه بالدعاء والصلاة فلا ملجأ منه إلا إليه. لقد أصبح شعاري في الحياة (أنا أقدر) (أنا مع الله اقوى).

لقد جعلتني إصابتي بالسرطان، أعمل جاهده على المضي قدماً لتحقيق أحلامي وأهدافي. ما أصابني تكفيراً لذنوبي. واختباراً لصبري وكل ما يأتي من رب العالمين جميل. كن مع الله يكن معك. كل ما يصاب به العبد مأجور عليه ...

اشكر الله دائماً وأبداً على كل حال، كل ألم نشكو منه نؤجر عليه، كل بلاء نؤجر عليه، كل حزن نؤجر عليه، وكل ذلك بفضل رب العالمين.

رسالتي لمحاربي ومحاربات السرطان:

ويح السرطان إن لم يخش منك بعزيمتك! لتسمع ذلك الصوت الذي ينبع حباً في داخلك، اسقه من عطائك وتسلح بتفاؤلك. هنا تكمن قوتك ويتحقق انتصارك. كما تدين تدان. اعمل الخير لترى مردوده على نفسك بالأثر الجميل، ردد لن يغلبني السرطان أبداً.

انطلق في محطات الحياة وان كانت بين أدوية ومسكنات وإن كانت بين ألم وحزن، أو فرح، فالعمر يمضي والحياة فانية.